
مصطفى محمود
وجريمة ثنائية الوجود
محمد العمدة

مصطفى محمـــــود
وجريمة ثنائيـة الوجود

محمـــد العمـــدة

الطبعة الأولى

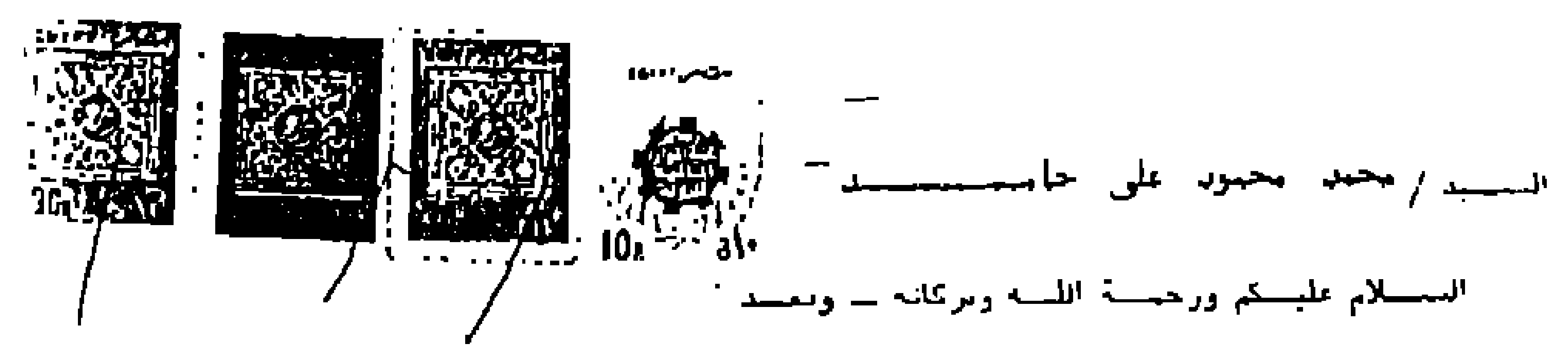
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writing & Translation

الأزهـــــر
مجمـــع البحـــوث الاســـلامية
الادارة العـــامة
للبحـــوث والتـــأليف والترجمـــة



السيد / محمد محمود على حامـــــــــد

السـلام عليــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ـــ وبعــد

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب . (مصطفى محمود و جريمة ثنائية الوجــــــــود) الخاص بكم :

نفيد بأن الـــكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـــانع من طبعـــه على نفقتـــكم الخـــاصة .

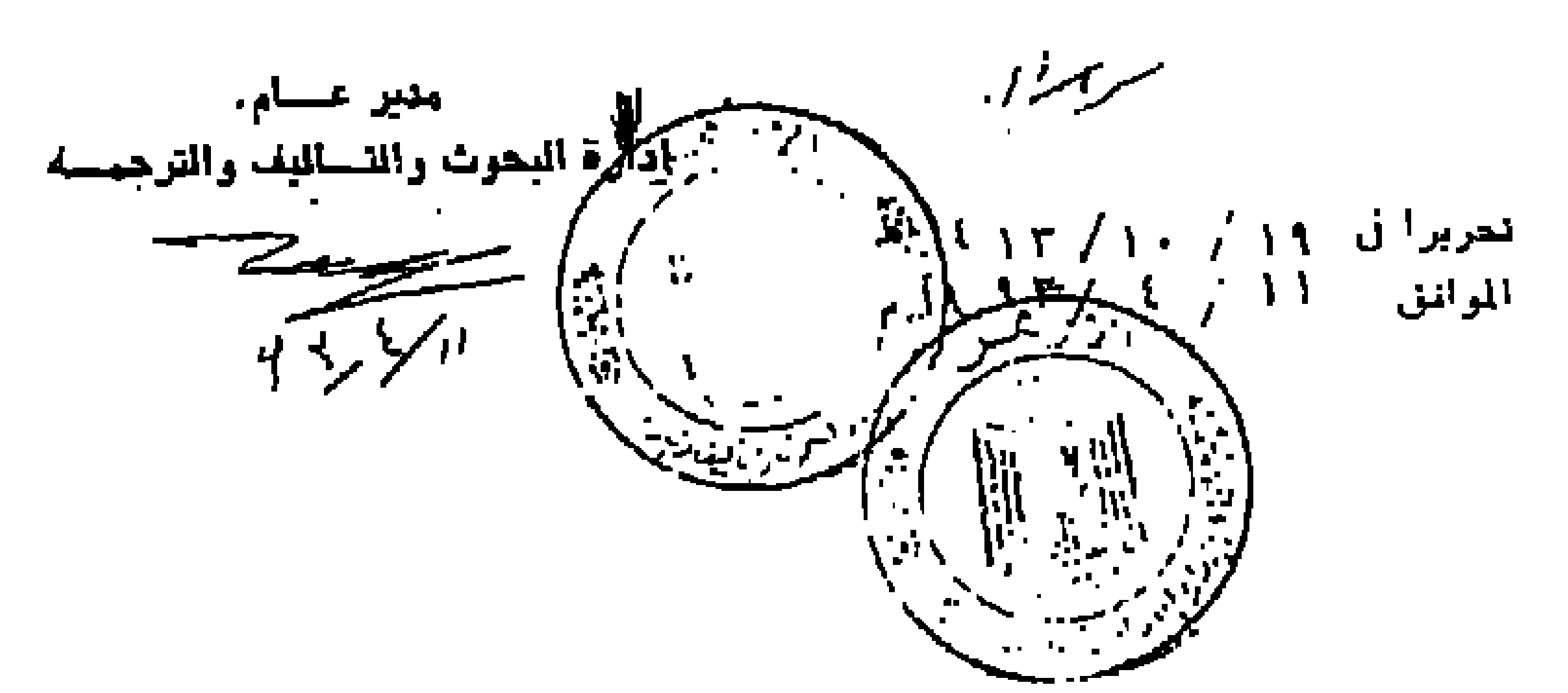
مع التـــأكيد على ضرورة العنـــاية التامة بكتـــابة الآيات القـــرآنية والاحاديث النبـــوية الشريفـــة .

واللـــــه المـــوفق ،،،

والســـلام عليـــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ،،،

مدير عـــام،
إدارة البحوث والتـــأليف والترجمـــة

تحريرا في ١٩ / ١٠ / ١٤١٣هـ
الموافق ١١ / ٤ / ٩٣م



صورة زنكوغرافية من موافقة الأزهر الشريف على طباعة الكتاب

رسالة إلى روح العقاد

لك فى عقـــلى صــورة ، وفى قلبى شعور ، وعلى كاهلى فضل ، ولست أملك من الكلمات ماأبرز به شيئاً من ذلك .

تلميذك

محمـــد محمود العمـــدة

إهـــــداء

إلى كل من قال لا إله إلا الله خالصةً من قلبه .

إلى كل من يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء مادياً كان أو معنوياً .

إلى كل من يؤمنُ بأحادية الوجود والتي تعني أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو الأزلي وحده (أي ليس له بدايةٌ) وما سواه مخلوقٌ له موجود بعد عدمٍ ، محصور بين ميقات قد وجد فيه وميقات فيه يفنى وميقات فيه يُبعث .

وكيف تكون للخالق بدايةٌ والبدايةُ رمزٌ من رموز الزمن، والزمن مخلوقٌ من مخلوقاته عز وجل خاضعٌ لأمره .

إن هذه التسمية (أحادية الوجود) تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى كان منذ الأزل (أي اللابداية) ولم يكن معه شيء من مخلوقاته على الإطلاق ، كان عز وجل وحده وما سواه كان العدم، ثم خلق الكون بما فيه من مخلوقاتٍ ، فوُجِدَت هذه المخلوقات بعد أن مَرَّ حينٌ من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً ، فهي لا تساوي الله في أزليته ، ومن يُضف على أي مخلوق من المخلوقات صفةَ الأزلية فقد أشرك مع

الله غيره فى صفة من صفاته اللصيقة به دون سواه ، بل من أضفى على مخلوق صفة الأزلية فهو يقول بالضرورة أن هذا المخلوق ليس مخلوقاً ، لأن الذى ليس له بداية ليس له خالق كشأن الله سبحانه وتعالى .

إلى كل من يؤمن بما سلف أضَعُ بين يديك فكرة ثنائية الوجود والتى أراد الدكتور مصطفى محمود أن يجعلها بديلاً لأحادية الوجود بغرض الوصول إلى حل لأزمة التسيير والتخيير كما سيرد فيما بعد .

يدّعى الدكتور فى هذه الفكرة أنَّ هناك (جواهرَأو حقائق أو ذوات للمخلوقات) - والتى قد تكون خيرة أو شريرة بطبيعتها - موجودة مع الله منذ الأزل (أى ليس لها بدايةٌ وليس لها خالقٌ) ، ومن هنا جاءت التسمية بثنائية الوجود أى أن الله وذوات المخلوقات قد وُجِدَا معاً منذ الأزل، وأنه ليس لله - سبحانه وتعالى عن ذلك - أسبقية زمنية على هذه الذوات غير المخلوقة .

ولا نريد أن نسهب فى توضيح مدلول هذه الفكرة والأسباب التى دفعت الدكتور إلى اعتناقها تاركين ذلك إلى الصفحات التالية، داعين الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى اقناعه بخطأ ثنائية الوجود وإرجاعه إلى أحادية الوجود لأنها الحق الذى لا حقَّ غيره.

المؤلف

مصطفى محمود

وجريمة ثنائية الوجود

لا شك أنه قبل توجيه النقد إلى موضوع ما يجب أن يكون هذا الموضوع ماثلاً حاضراً في ذهن الناقد والموجّه إليه النقد وكل من يهمه التعرف على الحقيقة بخصوص الموضوع والنقد الموجه إليه .

والذى دفعنا إلى كتابة هذا البحث هو إحساسنا بأن الدكتور الجليل مصطفى محمود قد وقع فى دائرة المحظور، وارتكب خطأً ليس باليسير يقتضى عدم الإبطاء فى الرد، وذلك حينما اعتنق فكرة ثنائية الوجود التى قال بها ابن عربى، ولعل العبرةَ فى سرعة الرد لا تقاس ابتداءً من نشر هذه الفكرة وإنما من وقت علمنا بها حيث لا يكلفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسعها .

ولا شك أيضاً أنه تعجل فى قبول هذه الفكرة ، ولم يعطها حقها من البحث والدراسة على الرغم من خطورة المدار الذى تدور فيه؛ .. فهى تبحث فيما حث الله على عدم البحث فيه رحمةً بعباده لأنه يعلم ما يدخل فى نطاق العقل فيمكن للعقل أن يصل فيه إلى نتائج وما يخرج عن نطاقه فيكون البحث حينئذ إجهاداً ليس من ورائه طائلٌ .

وثنائية الوجود التى نتحدث عنها ليست هى المقابل لأحادية الوجود الهندية التى يعتقد المؤمنون بها أن الخالقَ هو عينُ المخلوق.. بمعنى أن الله والكون شيءٌ واحدٌ ، وكأنما الكون بما يحوى هو البدن والله سبحانه وتعالى هو روح هذا البدن، وإنما هى ذاتٌ مدلولٍ آخر مختلف كل الاختلاف عن المعنى السابق ذكره . وفكرة ثنائية الوجود التى يقول بها الدكتور تصيب القارىء بالمفاجأة والدهشة حين يقرأها وذلك حال استيعابه لها.. فكل منا يؤمن أن الله قد خلق الإنسان وهيأ له هذا الكون الفسيح بما يناسب تكوينه، وكل منا يتصور أنه قبل خلق الكون والمخلوقات التى تعيش فيه لم يكن هناك وجودٌ إلا لله سبحانه وتعالى وحده ولم يكن هناك وجود لسواه .. فالتصور السابق هو الذى يقبع فى مخيلة كل مسلم بل كل معتنق لديانة من الديانات الثلاث .

والذى حدث هو أن الدكتور لا يرى ذلك وإنما يؤمن بثنائية الوجود التى قال بها ابن عربى ومن نهج نهجه فى اعتناق هذه الفكرة .

وثنائية الوجود كما يراها الدكتور تعنى أن الخالق والمخلوق قد وُجدا معاً منذ الأزل .. فالمخلوقات التى خلقها الله ومن بينها الإنسان لم تُخلق كليةً من العدم (أى اللاشيئية)، وإنما كانت (أى المخلوقات) عبارة عن ذوات في العدم أو حقائق لها خصائصِها الملازمة لها منذ الأزل.

ويطلق عليها الدكتور عدة أسماء .... فيسميها ذوات النفوس أو حقائق النفوس أو جواهر النفوس أو الكيانات الثابتة فى العدم .

ونحن لم نقصد فى السطور السابقة توضيح مدلول الفكرة وفرض فهمنا لها على القارىء ، وإنما قدمنا لها بإيجاز مما يسهل عليه فهمها بالأسلوب الذى وردت به فى مصادرها، أما عرض الفكرة كما جاءت فى كتابيه (السر الأعظم) و (الوجود والعدم) فهو ضرورةٌ حتميةٌ لا غنى عنها أثناء مناقشة الفكرة لبيان ما إذا كانت صحيحةً أم خاطئةً.

واعتناق الدكتور لفكرة ثنائية الوجود كان له سبب فى نفسه.. فقد ساق هذه الفكرة أثناء إجابته على السؤال المعضل الذى يتجدد بتجدد الأجيال دون أن يفصل فيه بقول.. هل الإنسان مسيرٌ أم مخير ؟

وينتهي إلى أن الإنسان مسيرٌ فيما اختار، فالانسان يختار بنيته والله سبحانه وتعالى يسيره في الاتجاه الذي اختاره إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وحين فُوجِئَ الدكتور بالسؤال الثاني .. ومن خلق نية الإنسان ؟ أليس هو الله؟

ونظراً لاعتقاد الدكتور أنَّ خلقَ الله لنيةِ الإنسان يتعارضُ مع مبدأ الحساب فكان لِزاما عليه أن يعتقد أنها ليست من خلق الله .

ولذلك وجد الدكتور ضالته في فكرة ثنائية الوجود لأن القول بها يخرج نية الانسان وحقيقته من قائمة مخلوقات الله، فنية الإنسان والتي يتصرف وفقاً لها ليست مخلوقة وإنما موجودةٌ منذ الأزل ، والله سبحانه وتعالى لم يفعل شيئًا سوى أنه استدعى هذه الحقيقة وألبسها لبسة الوجود، وفقاً لرغبتها وطلبها . ومن هنا فإن الله لم يفرض على الإنسان طبيعته ونيته الخيرة أو الشريرة ، وإنما هي حقيقته التي وُجِدَ عليها منذ الأزل .

وبعد هذه المقدمة نعرض الفكرة كما وردت في كتابي (الوجود والعدم) و (السر الأعظم) .. يقول الدكتور في كتابه الوجود والعدم الصفحة الثالثة والثلاثين :

اختيار الإنسان إذن حقيقةٌ قرآنيةٌ .. وحريةُ ذلك الاختيار مقررةٌ مكفولة. والمشكلة تبقى .. كيف نوفق بين وجود إرادة العبد وإرادة للرب .. وكيف نوفق بين هذا وبين تصورنا للتوحيد، وكيف نفهم إسناد الفعل إلى العبد والرب معاً. هل هناك إرادتان ؟ وهل هناك مشيئتان ؟ هناك سرٌ . ومفتاح هذا السر فى الآية ذات الدلالة العميقة التى يخاطب الله بها نبيه .

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾

(الأنفال – ١٧)

فالله فى هذه الآية العجيبة يثبت الرمى للنبى عليه الصلاة والسلام وفى ذات الوقت ينفى عنه الرمى، يثبت له الفعل وينفى عنه الفعل فى عبارة واحدة (وما رميت إذ رميت).. ثم فى النهاية يثبت الفعل لنفسه (ولكن الله رمى)

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾

(الأنفال – ١٧)

والواقع المشهود الظاهر يقول إنهم قتلوهم بأيديهم وسيوفهم .. هذه حقيقة يشهد بها الواقع.. ولكن القرآن ينفيها .

«فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم» .. ويسند القتل بشكل خفى إلى الله .

وهذه إشــارة إلى أن المســألة لهــا ظاهر وباطن ، وأن القضية لها أسرار .

فــالظاهر أمـامنا إرادتـان، ولكن الحـقيـقـة أن الإرادتين تعمـلان فى نطاقٍ خفى ، وكـأنهمـا إرادةٌ واحـدةٌ .. فـالله لا يكره العـبـد على مـا لا يريد، بل يخـتـار له من جنس قلبـه ويريد له عين مـاأراد لنفسـه ويسـهل له إنفاذ مـا أضـمـر فى نيتـه . . ومن أراد الدنيا أتـاه الدنيا ومن أراد حرث الآخـرة زاد له فى حـرث الآخـرة.. من طلب الهدى هداه ومن أضـمـر فى قلبه المرض أمرضـه، من أعطى واتقى وصدق بالحسنى يسـره لليسـرى ومن بخل واسـتغنى يسـره للعسـرى.. والآيات على ذلك صريحة .

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريدُ حرث الدنيا نؤته منها ﴾ .

(الشورى – ٢٠)

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ (محمـــد – ١٧)

﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾

(البقـــرة – ١٠)

﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾

(الليـل – ٥ – ١٠)

ومعنى ذلك أن الله يقضى على العبد ما يطابق نيته .. وأن العبد ينوى والله ينفذ له مانوى .. إذا أراد أن يضر قال له هاك يدى نفذ بها ما أضمرت من ضررٍ وعليك إثمُ نيتك وإن أراد أن ينفع ويفيد قال له الله هاك يدى نفذ بها ماأضمرت من نفع ولك ثوابُ نيتك .. فاللهُ فى الحالتين هو النافع الضار وهو الفاعل .. وإنما تبتلى السرائر (النيات) ويوم القيامة هو

﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ (الطارق – ٩)

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحُصل ما فى الصدور ﴾ (العاديات – ٩ – ١٠)

فبواطن القلوب هى عمدة الحكم، ومن هنا تزول الثنائية ونعود إلى واحدية، فالله يسيرك إلى عين اختيارك .

فلا جبر ولا وجود لإرادتين متنازعتين، بل مشيئة واحدة، فالله يشاء لك عين ماشئت لنفسك وينفذ لك ما أضمرت فى قلبك ليكشف لك ما كتمت ، ويعلن ما خبأت ويظهرك أمام نفسك على حقيقتك .. وبذلك يزول الخيطُ الدقيق الفاصل بين التسيير والتخيير ، فإذا بالتسيير هو عين التخيير والتخيير هو عين التسيير .. وإذا بالاثنين واحد فى ذلك اللغز الذى اسمه الإنسان .

ولكن الله كان يعلم سلفاً كل شيء بحكم علمه المحيط.. وعلم الله لا ينفي حرية العبد.. كما أن علمك بضعف ابنك في لغة ثم تنبؤك برسوبه لا يعني أنك أنت الذي أسقطته في الامتحان .. إنما هو علم حصرٍ وإحاطةٍ لا علم إلزامٍ وإكراهٍ . إذن لسنا عرائس في مسرح عرائس وتحركنا الخيوط راغمين فنتعانق ونتلاكم دون أن يكون لنا في الأمر حيلةٌ واختيارٌ .

كما أننا لسنا ممثلين في مسرح دراما نتلو أدواراً محفوظةً وكل منا يمثل هاملت وكأنه هاملت ودون آن يكون أبدا هاملت .

بل نحن نمثل أنفسنا ونختار طبائعنا ونباشر نياتنا.. فنحنُ حقائق ولسنا دمي. وإذا كان لابد من التمثيل بالمسرح.. فنحن نمثل علي مسرح عجيب تختفي فيه كمبوشة الملقنين فلا تظهر لنا ولا لأحد.. ويباشر التلقين في هذه الكمبوشة الخفية عدد من الملائكة والشياطين يلقنون الممثل نسخاً مختلفةً من نفس الدور .. واحد يقول له اقتل.. والآخر يقول له لا تقتل.. حرام.. اصفح واغفر.. وثالث يقول بل تكسر له ساقه كما كسر لك ساقك.. ورابع

يقول بل تكسر ساقه وتسرق حافظته .. وخامسٌ وسادسٌ وسابع وثامن .. وكل واحدٍ يقترح عبارة وفعلاً .. ويتلقى الممثل هذه الاقتراحات دون أن يرى مقترحيها فيخيل إليه أنها من نفسه .. وهو يتخير منها فيستجيبُ إلى ما يوافق نيته وطبعه ..

وهو بهذا المعنى لا يمثل بل يعبر بصدقٍ عن وجوده (كل اللغز أن الله عالمٌ مسبقاً بجميع اختياراته ولكن هذا العلم الإلهى لا يتدخل فى هذه الاختيارات) ومن هنا كانت الرواية الإلهية محبوكة والرواية الشكسبيرية ملفقةٌ ومحفوظةٌ من الممثلين مسبقاً، والرواية الإلهية مبنية على خطة التوحيد الكامل بينما رواية شكسبير تتدخل فيها عدة أيدٍ وعدة مشيئات .. كمشيئة المخرج أو المنتج أو الممثل أو صخب الجمهور ويمكن أن تنتهى إلى الفشل والإحباط .

سوف يقول واحد ويعترض قائلاً :

صدقنا أن البطل فى هذه التراجيديا الإلهية المحكمة لا يمثل ولا تحركه الخيوط بالرغم عن إرادته بل هو يختار نيته وضميره وينفعل عن طبعه ونفسه وحقيقته .. ولكن ألا يحق لنا أن نسأل ومن خلق له حقيقته ؟

ونخرج قليلاً عن مقال الدكتور لنشير إلى أنه من هنا كانت البداية ، ولإجابة هذا السؤال اعتنق الدكتور فكرة ثنائية الوجود حتى يستطيع من خلالها إخراج (ذات الإنسان أو حقيقة الإنسان أو جوهر نفس الإنسان أو نية الإنسان) من قائمة مخلوقات الله وبذلك يتخلص من هذا السؤال والذى يمثل عقبة كؤود أمامه فى حل لغز التسيير والتخيير .

ونعود إلى مقال الدكتور لنرى كيف يجيب على التساؤل السابق (من خلق له حقيقته؟) يقول الدكتور : هو سؤال يحملنا إلى حلقة أخرى من حلقات العماء والخفاء والأسرار فنقول .. لا .. حقيقة أى إنسان غير مخلوقة وغير مجعولة.. ولو كانت حقيقتك مخلوقة مجعولة لما كانت حقيقة .. ولأصبحت تلفيقاً طارئاً، ويتابع الدكتور قائلاً : وسوف يعود السائل ويسأل مندهشاً .. وإذا كانت حقيقتى غير مجعولة.. فمن أين أتت؟ فنقول: حقيقتك أزليةٌ قديمةٌ وليست بجعل جاعل.. والله لايقلب الحقائق ولا يغيرها .. وإنما يعطيها لبسة الوجود لتعبر عن نفسها وتكشف عن دخائلها ..

وسوف يصرخ صاحبنا حائراً :

وأين كنت قبل إيجادي؟ فنقول كنت حقيقة فى العدم تطلب من الله بلسان الحال فرحمك الله بإيجادك وألبسك لبسة الوجود وأعطاك الذراع والقدم واللسان لتضر وتنفع وتتحقق بمنزلتك ورتبتك بلا ظلم وبلا قهر وبلا تدخل من أحد.. يقول لك ربنا :

﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾

(مريم – ٩)

ويقول **﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾** (النحل – ٤٠)

فيوجه الخطاب (أن نقول له) لتلك الحقيقة فى العدم وكأنما لها كينونةٌ من نوع ما .. وكأنما العدم غير معدوم. وذلك سر آخر يعرفه أهل الأسرار .

فالعدم ليس معدوماً وإنما له كينونة من نوع ما ، والفرق بين كينونة الوجود وكينونة العدم كالفرق بين الموجب والسالب.. وكالفرق بين الفاعل والقابل.. وكالفرق بين النور والظلمة.

ولو كان العدم معدوماً لما كان له معنىً فى الذهن فالعدم كليةٌ من الكليات ، وكل كلية تندرج تحتها حقائق. وتلك الحقائق المندرجة فى العدم هى النفوس والأعيان الثابتة فى الأزل التى تتطلع إلى الله طالبة أن يرحمها بإيجادها.

أنا .. أنت .. وكافة الخلائق .. حقائق لها قدم وثبوت وأحقيةٌ في الأزل ولكنها حقائقُ سالبةٌ غيرُ قادرةٍ على الوجود بذاتها وهي تظلُّ عاطلةً عن الفعل حتى يعطيها الله القدرة على الوجود والفعل .

ويتابع الدكتور قائلاً :

وهذا كلامٌ عجيبٌ يفتح أمامنا مغالق مثيرة ويضع أقدامنا على حافة الخفاء المطلق. وهو يفتح الباب لألف سؤال وســـؤال . وليس مطلوباً من المسلم أن يخطو إلى هذا المدى.. ومن الممكن للمؤمن أن يعفي نفسه من كل هذا البحث ويكتفي بالتسليم والتصديق بنص القرآن، وبأنه مكلفٌ مسئولٌ، وبأن الله عادلٌ لا يظلمُ أحدا وأنه وحده الفاعل والضار والنافع بالرغم من كثرة القوى التي تبدو في الظاهر وكأنها تضر وتنفع .. ويؤمن بذلك تسليماً وتصديقاً ويكفي نفسه شر الحيرة.

وفي نفس الكتاب (الوجود والعدم) في الصفحة الخامسة والأربعين يقول الدكتور مؤكدا للمعنى السابق :

هل هناك ما سوى الله ؟؟

على هذا السؤال الأزلي يجيبون .

نعم .. هناك العدم .. فما سوى الله عدم .. والعدم غير معدوم.. فالعدم هو الوجه المقابل للوجود ، كالظلمة فى مواجهة النور والسالب فى مواجهة الموجب والقابل فى مواجهة الفاعل وكالمرآة فى مواجهة الشمس .

وفى العدم حقائق أزلية قديمة هى شئون الله ، ونحن كلنا كُنَّا حقائق فى العدم أخرجها الله برحمته وأعطاها لبسة الوجود وجعلها محلاً لتجليات أسمائه وصفاته ..

﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾.

(الأحزاب - ٣٤)

﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾

(مريم - ٩)

وهذا الخلق المتجدد وإخراج الحقائق من العدم إلى الوجود ومن الظلمة إلى النور هو شئون الله .. والله هو الوجود المطلق الذى يستحيل عليه العدم فلم يبق إلا أن يكون العدم هو الغير بالنسبة لله والسوى (أى ما سوى الله) .. وأن تكون النظرة الثنائية نظرة لا معدى عنها فى فهم الأمور.

ولكنها نظرةٌ ثنائية لا تنفى وحدة الوجود .. فالوجود كله لله ولا وجود لغيره ولا فاعل غيره طالما أننا وصفنا الغير بأنه عدمٌ وبأنه قابلٌ وليس فاعلاً .

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ (البقرة - ١١٥)

﴿ له مافى السماوات وما فى الأرض ﴾

(النساء - ١٧١)

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾

(الحديد - ٣)

ووحدة الوجود بهذا المعنى وحدة وجود إسلامية لا وثنية فيها ولا أثر لانحرافات وحدة الوجود الهندية ، فلا توحيد فيها بين العبد والرب، ولا قول بأن الرب هو عين العبد، ولا دعوى مشبوهة مثل دعوى (أنا الله) .. فقد قلنا من البداية أن العبد كان حقيقة فى العدم .. حقيقة سالبة (قابلة) لافعل لها .. وأنها خرجت إلى الفعل والوجود والحياة بفضل الله ، وأن العبودية والافتقار والاحتياج خصائص ملازمة لها منذ الأزل .. ولا تصح لها دعوى ربوبية على الإطلاق إلا إذا أصابها الجنون أو الفكر أو الإلحاد.

ويتابع الدكتور حديثه عن ثنائية الوجود فى الفصل الرابع من نفس الكتاب (الوجود والعدم) قائلاً :

ما ثم إلا وجود وعدم .. ولكن العدم غير معدوم ، بل هو حضرة لها حقائقها كما أن الوجود (الله) حضرة لها حقائقها .. فالعدم حضرة سالبة بمثل ما أن الوجود حضرة موجبة.. والعدم حضرة (قابلة) بمثل ما أن الوجود حضرة (فاعلة) وهما أشبه بالظلمة والنور والمرآة والشمس التى تبدو فيها .. وهى تشبيهاتٌ قاصرةٌ ولكننا لا نجد غيرها .

وكل حقيقة فى العدم هى قابلية .. وهى عينٌ ثابتة قديمة فى الأزل .. وهى ذات لها خصوص وصف هو الافتقار الكامل والاحتياج المطلق وعدم القدرة على شىء .. وهى حقيقة غير مجعولة (غير مخلوقة) فهى قديمة أزلية وتشخصها أزلى .. فكل ذات تحمل معها خصائصها ومكنونها منذ الأزل .

وتتفاوت الحقائق (الذوات) فى الجانب السلبى العدمى، كما تتفاوت درجاتُ البرودة سلباً تحت الصفر.. وهو مثال تقريبى لأشياء لا يمكن تقريبها ولا تمثيلها بعباراتٍ وكلمات فنحن فى منطقة من الأسرار النهائية لا يجلوها اجتهادُ فكرٍ ولا يجيب عليها إلا كشفُ إلهى وعلمٌ لدنى.

ومن الحقائقَ في العدم ما لا يطلب الظهور ولا الوجود وتلك الحقائق تبقى عدماً مطلقاً لا يجعل الله لاسمه الظاهر سبيلاً إليها .

ومن الحقائق في العدم ما يتوق إلى الظهور وما يتطلع إلى الله حين يتجلى عليه طالباً أن يرحمه بإيجاده وتلك الحقائق أو الذوات يخرجها الله من العدم إلى الإمكان ويجعلها محلاً لولاية أسمائه الحسنى وصفاته، وتلك هي شئون الملك والملكوت.. وهذا هو عالمنا .. وهذه الذوات هي أنا وأنت ونحن..

وكل ذات منا تحمل حقيقتها معها وتحمل خصوص وصفها معها ولا يجعل الله لقدراته سبيلاً إليها إلا من حيث إعطائها لبسة الوجود الخارجية وإعانتها على الفعل بحسب خصوص نياتها . ولا يقلب الله حقيقة أحد ولا يقهر أحداً على غير طبيعته .. (فالحقائق كما قلنا قديمةٌ أزلية غير مجعولة) .

ولو قلنا إن الله يجعلني قهراً كذا وكذا ، ففي هذا الكلام نفي لذاتي ونفي لحقيقتي .. وقلب الحقائق مستحيلٌ وإلا كانت الحقائق ظواهر لا حقائق وهذا نفي للحكمة التي أقامها الله ناموساً لكل شيء .

ثم إن الجعل والقهر هو نفى للإمكان وقد أراد الله فى ناموسه أن يكون كل منا ذاتاً قابلةً للاحتمالات من البداية.. وإمكانيةً بحتةً مفتوحةً لجميع الاختيارات .

ولو كان (القابل) مجعولاً لما كان قابلاً ولضرب عليه التحديد من بدايته ولا نتفت المحاسبة والمساءلة.. كما أننا إذا نفينا (الذات) جعلنا من المساءلة عبثاً.

ونسائل من ؟ ونحاسب من ؟ والأمر مجعول ولا إمكان لوجه آخر ولا قابلية لاحتمالات ولا حقيقة للعبد ، وإنما اللهُ هو الذى ينوى وهو الذى يضمر وهو الذى يفعل .. إنما تصحيح الأمر أن ذات العبد حقيقةٌ وأنها إمكانٌ بحتٌ قابلٌ لجميع الاحتمالات .. وأن العبد ينوى ويضمرُ ويتوجهُ بالإرادة إلى حيثما تسول له نفسه ولكنه لا يستطيع أن يفعل فى علم المادة والواقع إلا بمعونة الله وقيوميته سواء علم بذلك أم جهل.. والله بقيوميته وقدرته يخرج نية العبد وسريرته إلى عالم التحقيق ، فيعاونه على تحقيقها على حالها خيراً كانت أم شراً دونما تدخل إلا إذا أراد العبد أن يتغير وأسلم نفسه وذاته راضياً مختاراً محباً .. وهذا هو الموت قبل الموت أو الفناء بين يدى الرب وخلع الاختيار

وخلع الإرادة الصغرى تسليماً وإيماناً وتصديقاً وثقة بالإرادة الكبرى.. هذا هو المشى إلى الله على الصراط والخروج من الهلاك إلى النجاة.

وحينما نقول إن هذه النوات الممكنة كانت فى علم الله، فيجب أن نفهم أن علم الله بهذه النوات هو ما تعطيه هى أنفسها من معلومات، وأن الله لا يتصرف فى القابل (الذات القابلة) إلا على ماهى عليه تلك الذات القابلة وإلا كان قالباً للحقائق وواضعاً للشيء فى غير موضعه وهو الظلم .. تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .. فهذه النوات إذن معلومة بما هى عليه ومحكومة بحقائقها .. هكذا اقتضت حكمة الله.. ولا يصح أن نجوِّز على الله ماينافى الحكمة .. فالله قضى فى أزله أن يستعمل كلاً على شاكلته وأن يوقف كلاً عند استحقاقه فى سابقته وألا يقهر أحداً على غير طبعه ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ . فهو لم يجعل إبليس إبليساً ولكن كبرياء هذه النفس الملازم لها منذ الأزل هو الذى رشحها لهذه المنصب الإبليسى.

وهكذا يقيم الله كل نفس فى مكانها بحسب خصوص وصفها القديم الأزلى وهذا مقتضى الحكمة الإلهية.. لاجبر من رب على عبدٍ ولا من عبدٍ على رب .

ويحاول الدكتور أن يقنعنا بأن ذوات المخلوقات لابد وأن تكون موجودة في العدم ومنذ الأزل ، وأن العدم لا يمكن أن يكون بمعنى (الا شيئية) كما يفهمه العلماء، ويرى أن عدم وجود ذوات المخلوقات في العدم يعنى أن هذه المخلوقات التى خلقها الله منبثقة منه .. إذ ستصبح ذواتُ هذه المخلوقات من ذات الله ، فيكون الله حينئذ هو الخالق والمخلوق ، هو العابد والمعبود وهذا يقلب مبدأ الحساب رأساً على عقب .

ويتحدث الدكتور فى هذا المعنى فى كتابه (السر الأعظم) قائلاً :

وهو (أى ابن عربى) يمضى إلى عمق أبعد من الباقين ويتتبع أعيان المخلوقات في الأزل ليجيب عن السؤال المعضل: هل لأعيان المخلوقات (أى ذوات المخلوقات) أحقية وقدم ووجود مستقل مع الحق تعالى فى الأزل أم أنها منبثقةٌ منه ولا ذاتية لها ولا استقلال ؟ هل نحن أمام وحدة وجود مطلقة - أى أن هذه الذوات مشتقةٌ من ذات الله- واللهُ هو المعبود الوحيد والموجود وكل شىء منه وهو بذلك يكون عابداً لنفسه ، ويكون التكليف والحساب والجزاء

علامات استفهام لا معنى لها .. أم نحن أمام ثنائية أزلية وشفعية أزلية.. والوتر (الواحد) مشفوع من البداية ومن القدم بالعدد ، فهناك الله ، وهناك ما سوى الله .. هناك الرب والعبد أزلاً وأبداً .

يقول ابن عربى أنه لايمكن نفى السوى (أى كل شىء سوى الله) مطلقاً فالسوى ثابتٌ ولا يمكن أن يكون العبدُ هو عين المعبود.. وهو لهذا يقول بتعدد القدماء وينفى عن هذه التعددية أى شبهة شرك بأن يقول: أن كل ماسوى الله من أعيان ثابتة عابدٌ لله طوعاً أو كرها محتاج إلى الله فقير إلى الله ، فكل هذه الأعيان الأزلية هى أعيان فى العدم.

والعدم ليس معدوماً عند ابن عربى وإنما هو الشق الآخر المطلق المقابل للوجود الإلهى المطلق، الظلام الذى يقابل النور والنفى الذى يقابل الإثبات والنار التى تقابل الجنة. ويصف ابن عربى البداية بأسلوبه الإشارى الرمزى قائلا :

إن العدم من البداية قام للوجود المطلق كالمرآة فرأى فيه الوجود صورته، كما رأى العدم نفسه فى مرآة الوجود فأصبحت ممكنات لكل منها وجه إلى العدم ووجه إلى الوجود يتلقى الفيض من الله وأدركت نفسها فى مرآة الله وكانت

من قبل تجهل نفسها في العدم (والعدم نار) فطلبت بلسانها الثبوتي من الله أن تُوجد فرحمها الله بإيجادها وأعطاها لبسة الوجود وأفاض عليها من أسمائه وصفاته فقبلت كل عين من هذه الصفات على قدر استعدادها، فإن كان الطاووس جاء طاووساً والخنزير خنزيراً فلأن نفس الأول كانت طاووسية لم تقبل إلا الصفات الطاووسية ونفس الآخر كانت خنزيرية لم تقبل إلا القالب الخنزيرى .. ولكن الله أفاض على الكل من وجود اللانهائى فقبل كل واحد على مقتضى حقيقته (وما حكمنا عليكم ولكن هكذا كنتم).

هكذا يقول الله للكل يوم القيامة .. (لم يظهر فيك من أحوال القدر وصفاته إلا حكم عينك وذاتك).

(أنت ما قبلت فى العالم إلا حقيقتك وما قضيت عليك إلا بما أضمرته أنت فى مرادك).

ما أعطيناك إلا ماكان فى نيتك ولا حرمناك إلا مما حرمت منه نفسك .. ومن أضمر في نفسه رغبة فى التغيير غيرناه، ومن أضمر رغبة فى التطهر طهرناه. ومعنى هذا أن قضاء الله المسبق بعلم الله الأزلى تابع لأهلية الأعيان الثابتة واستعدادها ، وما أضمرته فيها منذ الأزل ، وليس

مفروضاً عليها ولا مقحماً عليها .. فلا ظلم هناك.. ولا يظلم ربك أحداً إنما هو يخرج الخبء ويجلو المضمر من العدم.

﴿ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض﴾ (النمل - ٢٥)

﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ (التوبة - ٦٤)

﴿والله مخرج ماكنتم تكتمون﴾ (البقرة - ٧٢)

﴿أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ (محمد - ٢٩)

وهذا سر القدر.. لا ثنائية ولا تضاد بين اختيار الرب واختيار العبد ..

فقد اختار الرب للعبد ما اختار العبد لنفسه فأصبح قدر الله وقضاؤه هو عين حرية العبد وطبعه وحقيقته .

ولا يصح للعبد أن يقول .. لقد خلقت لى طبعى الشرير، فهذا زعم مكذوب فالأعيان الثابتة (جواهر النفوس) أزلية فى العدم غير مخلوقة، وإنما خلق لها الله لبسة الوجود، وألهمها خيرها وشرها فى ذات الوقت، فقبلت الشر ورفضت الخير **﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾** (الشمس-٨)

يقول ابن عربي عن هذه الأعيان الثابتة أنها ليست بجعل جاعل وأن لها استقلالاً اعتبارياً وأنها موجودةً لذاتها لالعلة، وأن لها أحقية كما أن لله أحقية .. أنت يا هذا علة لكونك كذا .. أنت معلول بعلتك والله خالقك فافهم .. وهذه الأعيان ليست ذرات روحية كما عند ليبنز، كما أنها ليست مُثلاً أفلاطونية لها أشباح على الأرض كما عند أفلاطون.

والله عالمٌ بهذه الأعيان وبما ستكون عليه وهو حاكم عليها، ولكنه لا يحكم على أحد إلا بما يجانس ضميره وخفاياه، لاجبر ولا إكراه .. وإنما هو يخرج المضمر ويفضح المكتوم ويظهر كل واحد على حقيقة نفسه لا غير .. ومعنى هذا أن التشخص قديمٌ وأزليٌ وباق إلى الأبد .. كان في العين الثابتة قبل أن تتسلم من الله لبسة وجودها، وهو باق فيها بعد أن تخلع هذه اللبسة بالموت، وهو ملازم لها في البرزخ ثم هو يعاودها بعد التجسد في البعث، وهو مدخلها إلى جنتها أو نارها .. وهو أبديٌ مثلما أن النار والجنة أبديتان، ولا يظهر في مرآة الوجود إلا حُكم العين فالعين قديمةٌ وأزليةٌ في حالة تجريد .. إنما يعطيها الخالقُ لبستها وحلتها الوجودية فيظهر حكمها. والله في جميع الأحوال رحمة صرفة، وكرم صرف بالنسبة لهذه

الأعيان الثابتة الأزلية.. يعطى بلا حدود .. وفرحته بالنفس الضالة العائدة إليه أكثر من فرحة الأم بوليدها التائه الذى رجع إليها، وهو قائم على جميع هذه الأنفس بالتربية والتزكية والإرشاد والإنذار والهداية فقبلت تلك الأنفس الهداية:

﴿وهو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾

(الأحزاب – ٤٣)

وهذا الإخراج من الظلمة إلى النور هو عين مايقول به ابن عربى فى الإخراج من العدم.

﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾

(هود – ٥٦)

والله متجلى بهذه الأفعال فى الكون كله. وهو يفعل هذا تفضلاً منه علينا لننفع وننتفع ولكنه مستغن عن هذا كله، فما جرى بالنسبة له علمٌ قديمٌ وتحصيل حاصل لا زيادة فيه ولا نفع ولا مصلحة.. كان الله ولا شىء معه وهو الآن على ماعليه كان.

وعلاقة الله بهذه الأعيان الثابتة فهى عن طريق أسمائه وصفاته .. فإن الحضرة الهوية الذاتية لا تقتضى نسبة فهى لذاتها فى ذاتها، ولكن ظهور الأعيان الثابتة بصفة

العبودية والفقر والاحتياج استدعى النسبة من هذه الذات من أجل الإيجاد، فظهرت الأسماء والصفات لتفيض على تلك الأعيان أحكامها ولبستها المناسبة.

وفى الصفحة الرابعة والثمانين من نفس الكتاب (السر الأعظم) يقول الدكتور : وقد اتجه العالم إلى الله بالحب منذ لحظة كن حينما نظر الله إلى أعيان المخلوقات فى العدم وأمرها بالوجود فتطلعت إليه وهامت به حباً .

وبعد أن عرضنا فكرة ثُنائية الوجود كما أوردها الدكتور فى كتابيه (السر الأعظم والوجود والعدم) ، وقبل أن نتعرض لمناقشة الفكرة لنجزم فيها برأى ، نود أن نعلم مامدى حجية هذا التراث الصوفى الذى انتقى منه الدكتور فكرته السابقة .. هل هى حجةٌ قاطعةٌ لا ينبغى الجدال فيها وقبولها على ماهى عليه باعتبار أنها كشوفاتٌ ربانيةٌ ينعم بها الله على الخاصة من عباده الذين بلغوا مرتبة معينة من العبادة ؟ أم هى قابلةٌ للفحص والتمحيص لبيان ما إذا كانت حقيقة أم وهماً فى مخيلة قائلها ؟

سوف نجيب على هذا التساؤل من خلال رؤية الدكتور نفسه لهذا التراث الصوفي . يقول الدكتور في كتابه السر الأعظم في مقال أخير بعنوان (التهتك الصوفى) :

والحقيقة أن التراث الصوفى بحرٌ عميقٌ فيه اللآلىء والأصداف، ولكن فيه أيضاً التماسيح والحيتان. وفيه جزائر المرجان وفيه المتاهات المهلكة التى لا يعود منها الملاح، والقراءة في التصوف أشبه بالملاحة فى بحار الظلمات بقاربٍ شراعي ، وما أكثر ما تنكسر الدفة ويتحطم المجداف ويفقد السالك اتجاهه.

والنور الوحيد الهادى فى هذا البحر هو نور الكتاب والسنة، وبدون الشريعة لا يمكن أن يصل السالك إلى بر أمان .. الشريعة دفةُ الملاح فى هذا البحر .. وهى دليله على مايأخذ وما يدع.. فما وافق الشريعة من لغة القوم وعلومهم يأخذه ، وما خالف الشريعة يتركه غير نادم.. والتسليم الأعمى بكل ماهو مسطور فى هذا التراث يؤدى بصاحبه أحياناً إلى الكفر والضلال الصريح، فالقوم أهل مواجيد وجذبات وأحوال وبعض ما يقولونه ينطقون به فى حالات الوجد وذهول العقل، كما يقول العاشق لمعشوقته

فى لحظة غرام مشبوب أنا وأنت روح واحدة وجسم واحد.. أنا أنت وأنت وأنا ، وهو كلام فى حقيقته كاذب.. فلم يحدث اتحاد بينه وبين حبيبته .. ولكنه من فرط حبه توهم هذا الاتحاد فى حالة من حالات التهتك والتوقد العاطفى .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدناً

ولا يصح أن نقرأ هذا الكلام على أنه ترجمة لواقع أو على أنه حقيقةٌ عرفانيةٌ .. بل على أنه تهتك وغرام وهوىً مشبوب ووجدانٌ مذهول .

وبهذا المعنى يجب أن نقرأ أبيات الصوفى العاشق ابن الفارض التى يخاطب فيها الرسول عليه الصلاة والسلام:

إلى رسولاً كنت منى مرسلاً

وذاتى بآياتى علىّ استدلت

وكلهم عن سبق معناى دائر

بدائرتى أو وارد من شريعتى

وإنى وإن كنت ابن آدم صورة

فلى فيه معنى شاهد بأبوتى

فهو يقول فيها أنا الله ، أنا الذى أرسلتك بشريعتى.. أنا الدائرة التى يخرج منها كل شيء ويعود إليها كل شيء.. أنا من آدم فى الظاهر أبو آدم وخالقه فى الحقيقة.. وهو كفر صريح .. أو قل تهتك المحب الذى تصور أنه عين المحبوب.. فهو يقول لله أنا أنت ورسولك أنا الذى أرسلته وآدم أنا الذى خلقته.

ونفهم من خلال الإجابة السابقة للدكتور أن هذه الأفكار الصوفية لا يجب التسليم بصحتها بحجة أنها كشوفات ربانية وعلمٌ لدنى، وإنما يجب قياسها بمقياس الشرع، فهى صحيحةٌ مقبولةٌ ما اتفقت مع الكتاب والسنة، وخاطئةٌ مرفوضةٌ ما اختلفت معهما .

والدكتور نفسه رفض بعض هذه الأفكار واعتبرها كفراً صريحاً وقبل البعض على أنها صحيحةٌ ومنها فكرة ثنائية الوجود .

ومن المعلوم أن المسائل الخاضعة للاجتهاد يختلف فيها الحكم باختلاف وجهات النظر واختلاف الحصيلة العلمية من مجتهد لآخر. فقد تغيب عن أحد المجتهدين بعض الأدلة الضرورية للفصل فى المسألة تؤدى به إلى الخطأ الجسيم.

ولا نقصد بالمجتهد من صدرت عنه هذه الأفكار الصوفية، لأن الدكتور يرى أنها علمٌ لدنى وكشوفات ربانية، وإنما نقصد بالمجتهد ذلك الذى يقيس هذه الأفكار بمقياس الكتاب والسنة ليعرف مدى التوافق والاختلاف .

وطالما أن هذه الأفكار خاضعة للبحث فى مدى صحتها وبطلانها ، فإنه لا موجب إذن لقصر هذا الاجتهاد على مجتهد دون آخر، ولا موجب لاعتبار رأي أحد المجتهدين فيها حجة على غيره .

* * *

وقبل الخوض فى تنفيذ الفكرة والانتهاء إلى رأى فيها نود أن نشير إلى أنه ماكان ينبغى للدكتور أن يبحث فى هذا الموضوع أى العدم بالتحديد، ولسنا من أنصار تقييد العقول وحظر الفكر عن الانطلاق فى ملكوت الله، فإعمال الفكر هو الطريق الوحيد للوصول إلى الله، وإنما نحن من أنصار ترشيد الفكر وعدم الدخول به فى متاهات خارج النطاق الذى رسمه له خالقه ، فنفقد وقتا كان يمكن استثماره فى النطاق المحدد على الرغم من أن الفشل

الذريع محققٌ وحتمى .. ولعل ترشيد الفكر بتحديد نطاق إعماله ونطاق عدم إعماله هو عين إعمال الفكر.

* * *

والحقيقة أنه لولا إيمانى بأن الكفر والإيمان مسألة نية لايعلمها إلا الله ، ولولا معرفتى بالدكتور من خلال أعماله، ولولا إدراكي أن هذه الفكرة جاءت خطأً من أخطاء التعجل وعدم التروى فى البحث ، لطبقت على الدكتور قاعدة أصولية مقتضاها تكفير من أنكر شيئاً من الدين ثابتاً بالضرورة كإنكاره لنص قرآنى مثلاً أو الإيمان بما يخالفه . وقد فعل الدكتور ذلك .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم﴾ (الأنعام -١٠١)

ويقول فى نفس السورة الآية التالية لها

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء قدير ﴾

(الأنعام -١٠٢)

ويقول أيضاً :

﴿ والله خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير﴾ (الزمر - ٦٢)

وهذه النصوص واضحة الدلالة على أن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء ، سواء كان حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وسواء كان مادياً أو معنوياً، والقاعدة الأصولية تقول بأن المطلق يجب أن يحمل على إطلاقه ، فالنص الذى جاء مطلقاً لا يمكن تقييده بمحض الهوى.

ومن هنا نسأل الدكتور ما الذى استند إليه حين استثنى من مخلوقات الله ذوات المخلوقات أو حقيقتها أو كياناتها الثابتة؟

فالدكتور قد خالف النصوص السابقة مخالفة صريحة، إذ يقول الله سبحانه وتعالى أنه خلق كل شيء، والدكتور يخالف ما قرره الله فيقول (إن هناك أشياء من المخلوقات وهى ذواتها لم تخلق وإنما وجدت منذ الأزل مع الله بخصائصها الذاتية والتى لم تكتسبها عنه جل وعلا) .

وأيضاً يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾

(الإنسان -

والدكتور لم يجعل من الإنسان شيئاً مذكوراً قبل الخلق فحسب بل جعل له حياة كاملة دون أن يشعر ، فالقارئ لفكرة ثنائية الوجود كما جاءت في كتابي (الوجود والعدم) (والسر الأعظم) يكاد يتخيل أن العدم حجرة مغلقة وأن الإنسان يجلس على مقعد في هذه الغرفة ومقيد بالأغلال، حتى أنه لا يستطيع أن يحرك أي عضو من أعضائه ولا يستطيع أن يفتح فمه ليتحدث، ولكنه يدعو ربه في جوفه طالبا منه أن يفك عنه أغلاله ويخرجه من هذه الحجرة المغلقة المظلمة. ولعل مازاد في المثال السابق هو أننا تخيلنا أن للإنسان جسداً في حجرة العدم في حين أن الدكتور تخيله نية أو حقيقة أو ذاتاً مجردة ليس لها بدن تتحرك بواسطته أو من خلاله .

فدور الله هنا مقصور على فك الأغلال وفتح حجرة العدم لينطلق الإنسان من هذه الحجرة إلى شارع الوجود، ألا ترون معي أنه تقييد لدور الله في الخلق دون مقيد.

وما ينطبق على الإنسان في المثال السابق ينطبق على سائر الكائنات، فكلها كانت نواتا مقيدة في العدم وتطلعت إلى الله فألبسها ثوب الوجود وفك عنها قيود العدم .

* * *

وذوات النفوس أو جواهر النفوس أو حقائق النفوس أو الكيانات الثابتة كما يطلق عليها الدكتور .. نلاحظ أنه يجعل لها حياة كاملة فى العدم دون أن يلاحظ.. فالقارىء يفهم من خلال قراءة الفكرة أن هذه الذوات تعلم أنها موجودةً في العدم وتعلم ماهية هذا العدم الذى تعيش فيه؛ وهى لذلك ترغب فى الخلاص منه ، وتعلم أن هناك وجوداً فتشتاق إليه .. وبعض هذه الذوات تعقد مقارنة بين الوجود والعدم وحين يترجح لديهم أفضلية الوجود على العدم تتطلع إلى الله وتدعوه أن يخرجها من العدم إلى الوجود.. إنها إذن حياةٌ كاملةٌ فى العدم مليئةٌ بالأفكار والمشاعر والرغبات.. وفى هذا خلط واضح بين الوجود والعدم.. وتحويل للعدم عن معناه الأصلى (اللاشيئية) إلى حياة كاملة مستترة ليست من خلق الله ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يعد هناك فارقٌ بيننا وبين الفكر الشيوعى الملحد.. فكلانا يؤمن بعد هذه الفكرة أنه من الممكن أن يكون هناك أشياء مثل (ذوات المخلوقات) قد وجدت بدون خالق .

* * *

ومن جهة أخرى فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾

(الذاريات – ٥٦)

فهذه الآية أوضحت أن خلق المخلوقات كان بإرادة الله، فحين أراد الله أن يُعبد خلق الخلق .. بينما جعلت فكرة ثنائية الوجود خلق المخلوقات موقوفاً على إرادة هذه الذوات في العدم .. فهناك كما يرى الدكتور ذوات اشتاقت إلى الوجود فطلبت من الله أن يفك أسرها من قيد العدم (والعدم نار) فأخرجها الله إلى الوجود .. وهناك ذوات لم تتطلع إلى الوجود ولم تشتق إليه فتركها الله على حالها– أى أن إرادة الخلق ليست لله وإنما لهذه الذوات فى العدم.

* * *

وهذه الفكرة تقيد من قدرة الله بدون مقيد إذ إنها تجعل الله فى عجز عن خلق كائنات حية ليس لها ذوات ثابتة فى العدم، فقد جعل الدكتور خلق الكائن موقوفاً على إرادة ذاته فى العدم فإذا لم تشتق هذه الذات للوجود ماكان الله ليخرجها، لأن الله – كما يرى الدكتور – لا يقهر الكائن على شىء ، ومن باب أولى فإنه إذا لم تكن هناك ذات فى

العدم ماكان الله ليخلق هذا الكائن بالمرة، وبالطبع ماكان الدكتور ليقبل هذا الكلام لو ورد فى ذهنه أثناء اعتناق هذه الفكرة.

* * *

وجاء أيضاً فى ثنائية الوجود أن هذه الذوات أو الحقائق تختلف عن بعضها البعض فى العدم ، فكل ذات تختلف عن الأخرى، لذلك فإن الذات التى تطلب الظهور يلبسها الله لبسة الوجود التى تناسبها ، فإذا كانت الذات طاووسية ألبسها الله بدنا طاووسيياً، وإذا كانت خنزيرية ألبسها بدناً خنزيرياً وهكذا .

وهذا كلام عجيب لأنه يستلزم أن يكون أمام الله نماذج مختلفة من صور المخلوقات والله - سبحانه وتعالى عن ذلك- يبحث فقط عن القالب أو الصورة التى تناسب تلك الذات أو الحقيقة الراغبة في الظهور.. فالله إذن لم يصور هذه المخلوقات بإرادته المحضة وبما يناسب الحكمة التى ابتغاها من خلق هذه المخلوقات ، وإنما فرضت هذه الذوات على الله الشكل الذى هى عليه .

فالله لم يخلق الطيور بأنواعها المختلفة لتمد الإنسان بالبروتين الذى يحتاج إليه ، وإنما هى أشكالٌ وتراكيب مفروضة على الله حتى يحدث التناسب بينهما وبين ذوات الطيور في العدم ، وكأن هذه الصور والقوالب أيضاً حقائق أزلية لا يمكن لله الخروج عليها .

وبالفعل قد جعل الدكتور- وبطريق غير مباشر- من صور هذه المخلوقات حقائق أزلية ليست من اختيار الله وتصويره، وذلك حين جعل ذوات المخلوقات حقائق أزلية، وجعل لكل ذات من هذه الذوات قالباً معيناً يناسبها ، فالذات أزلية والذات لها قالبٌ معينٌ يناسبها دون غيره، إذن هذا القالب أيضاً أزلى وليس من إبداع الله سبحانه وتعالى ، وكذلك كل موجود من الموجودات المخلوقة قد فُرِضَ على الله سبحانه وتعالى الشكلُ الذى يناسب ذاته .

وبالطبع هذا الكلام السابق مردود ويتعارض مع العديد من النصوص القرآنية يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليمٌ ﴾ (الأنعام- ١٠١)

وجاء معنى (بديع السماوات والأرض) في تفسير ابن كثير بأن الله مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق ومنه سُميت البدعة بدعة لأنه لا نظير لها فيما سلف، فليست إذن هى قوالب مفروضة على الله لتناسب الذوات الموجودة في العدم ، وإنما هى إبداعات من الله ومحدثات وليس لتناسب الذات وإنما لتناسب الحكمة التى أرادها الله من خلق المخلوق .

﴿ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾

(التين – ٤)

وقوله تعالى :

﴿خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾ (التغابن – ٣)

وقوله تعالى :

﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (آل عمران – ٦)

وقوله تعالى :

﴿ ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك﴾ (الانفطار – ٨)

والآيات السابقة جعلت تصوير الإنسان فى الرحم وخارج الرحم من عمل الله ، ولقد أخبرنا الله أنه خلق الإنسان فى أحسن صورةٍ (أحسن تقويم) ، وكل إنسانٍ خلقه الله جعله على هذه الصورة التى اختارها للبشر عموماً ، ولو كان الله يلبس كل ذات لبسة الوجود المناسبة لها لما خلق البشر جميعاً على صورة واحدة وهى الصورة المعروفة للبشر بوجه عام .. لأنه لا يمكن أن تكون هذه الذوات جميعاً متحدة فى الخصائص ، فالتصوير إذن بنصوص الآيات السابقة متوقف على مشيئة الله وليس على المناسبة بين الذات وبين القالب .

* * *

ونلاحظ من جهة أخرى أن فكرة ثنائية الوجود بدلت المعنى الأصلى لكلمة الخلق من الإبداع والابتكار والإحداث من اللاشىء إلى مجرد الإخراج من العدم .. وهو كلام جد خطير ماكان ليأتينا من رجل العلم والإيمان .. رجل قضى العمر فى الدعوة إلى الإيمان بالله الخالق المصور المبدع المحدث .. الله الذى هو أحسن الخالقين .. فالإنسان يخلق

والله يخلق ولكن خلق الإنسان خلق تجميع وتركيب لموجودات موجودة من قبل لتعطي موجوداً لم يكن موجوداً بينما خلق الله هو إنشاء الشيء من اللاشيء وهذا هو الفارق الذى أراد الدكتور أن يزيله بقصد أو بغير قصد ناسياً أنه رجل يتلقى عنه الناس فى ثقة ودون مراجعة.

* * *

ولقد غاب عن الدكتور شيء عظيم الأثر فى خلع هذه الفكرة من أساسها .. فهو يرى أن هذه الذوات أو الحقائق غير مخلوقة وخصائصها ملازمة لها منذ الأزل، وهذه الحقيقة أو النية إما أن تكون خيرة بطبيعتها أو شريرة بطبيعتها ، فإذا كانت الحقيقة أو النية خيرة سير الله صاحبها فى طريق الخير أما إذا كانت شريرة فإن الله يسير صاحبها فى طريق الشر .

وهذا الكلام مردود لأنه لو كان صحيحاً لوجدنا المجتمع طبقتين .. طبقة مستديمة على الخير وأخرى مستديمة على الشر لأن الإنسان سيعجز عن الخروج على مقتضيات طبيعته ذات الخصائص الأزلية .. ولكن ذلك لا يحدث لأن كل إنسان حتى ولو كان غير ذى عقيدة يتأرجح فى حياته بين الخير والشر.. فهو خير تارة وشرير تارة.. فالمسألة

إذن ليست مسألة طبائع تفرض على صاحبها أن يسير فى في هذا الطريق أو ذاك .

والدكتور من أعدى أعداء الحتمية فى مجال الإنسانيات، وقد تحدث عن ذلك فى مواضع عديدة.. فهو يقول فى كتابه (أكذوبة اليسار المصرى) الصفحة التاسعة والعشرين:

ثم هذه الدعوى الزائفة للماركسيين بحتمية قوانينهم ، وكأنها قوانين منزلة من اللوح المحفوظ هى دعوى أخرى غير علمية فلا حتمية فى الإنسانيات .. إنما هناك على الأكثر عناصر ترجيح وظن وتخمين واحتمالات متفاوتة.

ولا حتمية إلا فى حركة الأفلاك والكواكب وكرات البلياردو وتروس الساعات والمادة الصرفة .. وحتى المادة الصرفة ظهرت قوانين جديدة تخرج حركة الالكترونات فيها من إسار الحتمية إلى مجال الحرية والاحتمال (قوانين هينزنبرج) .

ويقول فى نفس الكتاب الصحفة الحادية والأربعين :

وكما يقول (ماكدوجال) يتميز الكائن الحى بخاصية ينفرد بها بخلاف المخلوقات جميعها.. وهذه الخاصية هى التلقائية.. والتلقائية موقف اختيار ذاتى يختلف عن حركة

المادة الجامدة.. فالكائن الحى يبادر بسلوك ونشاط تلقائى لا ترافقه علاقات ترابطية حتمية ملزمة وبذلك يخرج سلوك الإنسان عن دائرة الظواهر الطبيعية التى تتصف بالآلية.. وهذا معناه عدم خضوع الإنسان لقانون الحتمية العلمية.. فالمواقف والاتجاهات والانفعالات جميعها من سمات الكائن الحي وهى لا تخضع واقعياً ولا تجريبياً لمواصفات الحتمية من قريب أو بعيد .

ورغم ذلك فإن الدكتور يتعارض مع نفسه ويفترض وجود ذوات فى العدم لها خصائص منذ الأزل فهى إما ذات طبيعة خيرة أو ذات طبيعة شريرة ونرجع بذلك إلى القول بالحتمية فى مجال الإنسانيات إذ تفرض هذه الذات على صاحبها اتجاها معيناً إما فى طريق الخير أو فى طريق الشر .

* * *

والحقيقة التي غابت عن الدكتور أيضاً هى أن الخير والشر من المسائل النسبية، فهما ليسا حقيقتين ثابتتين منذ الأزل، وإنما يرتبطان بالشكل الذى اختاره الله للإنسان وللكون الذى يعيش فيه - فلو أن الله سبحانه وتعالى لم

يجعل الإنجاب متوقفاً على المعاشرة بين الرجل والمرأة لما كانت هناك جريمة الزنا ، ولو أن الله لم يحرم الزواج من الأخت لما كان الزواج منها حراما أو شراً كما كان الحال فى بداية الحياة على الأرض .

إذن معنى الخير والشر قد نشأ بعد خلق الكون والإنسان بالصورة التى اختارها الله لهما وبعد نشأة الدستور الذى وضعه الله للإنسان من خلال الرسالات السماوية.. فكيف ينسب الدكتور لهذه الذوات الطبيعة الخيرة أو الشريرة ، والخير والشر لم يكن لهما معنى ولا وجود قبل خلق الكون والإنسان. وقد أكد الله سبحانه وتعالى فى العديد من الآيات القرآنية أنه قادر على تبديل الجنس البشرى بخلق جديد.

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾ (فاطر ١٥ - ١٦)

وعلى فرض أنه سبحانه وتعالى بدل البشر بغيرهم من الكائنات المخيرة لاختلف مفهوم الخير والشر بالنسبة لهذا الخلق الجديد عنه بالنسبة للبشر.

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شىء قديرٌ﴾ (فاطر - ١)

فالزيادة فى الخلق تتوقف على مشيئة الله وليس على إرادة هذه المخلوقات فى العدم.. من رغب منها فى الظهور والخروج أخرجه الله ومن لم يرغب تركه الله على حاله .

وإذا افترضنا أن هذه الفكرة صحيحة وأن الخلق هو مجرد إخراج للذوات أو الحقائق الأزلية من العدم وفقاً لرغبة هذه الذوات فى الخروج؛ فإنها لم تحل القضية التى كانت سبباً فى اعتناق الدكتور لهذه الفكرة.

فكما قلنا من قبل إنه حين سُئل فى مسألة التسيير والتخيير؟ أجاب بأن الإنسان مسيرٌ فيما اختار بنيته.. وحين سئل ومن خلق له نيته أو حقيقته ؟ أجاب بأن هذه النية أو الحقيقة غير مخلوقة حتى يتفادى القول بالجبرية.. إذ كيف يخلق الله للإنسان نيته الخيرة أو الشريرة ثم يحاسبه عن أفعاله الناتجة عنها .

والقول بأن حقيقة الإنسان أو ذاته أو نيته غير مخلوقة لم يحل اللغز كما اعتقد الدكتور وأصبح إيمانه بثنائية الوجود بدون فائدة .. لأن كون هذه الحقيقة أو الذات أزلية بخصائصها الملازمة لها يجعلنا أيضاً أمام إنسان مسير ومجبر على طريق الخير أو الشر، ولكن مصدر التسيير هذه المرة هو حقيقة الإنسان ذات الخصائص الأزلية .. وإذا كان الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذه الحقيقة أو الذات ولم يؤثر فى خصائصها الملازمة لها منذ الأزل سواء كانت خيرة أم شريرة.. فمن باب أولى أن الإنسان الذى نشأ عن إلباس هذه الذات لبسة الوجود لم يؤثر فى هذه الحقيقة، وتبعا لذلك يكون غير مسؤول عن طبيعتها الخيرة أو الشريرة.. ومن هنا فإننا رجعنا إلى نقطة البداية .. فإذا لم يكن الإنسان مسيراً بنيته التى خلقها له الله خيرة أو شريرة فهو مسير ومحكوم بطبيعة هذه النية أو الحقيقة والتى هى أزلية وليست بجعل جاعل.

وليس لهذه الأزمة حل عند الدكتور إلا أن يجعل هذه الحقيقة أو الذات هى الإنسان نفسه ويكون بذلك أول من قال على سطح الكرة الأرضية إن الإنسان قد وجد قبل خلق الله له .

ومن الملاحظ أن الدكتور لم يوضح لنا ماهية هذه الذات، أو الحقيقة أو الكيان الثابت أو جوهر النفس.. فكل هذه الأسماء السابقة أطلقها الدكتور على معنى واحد ولكنه لم يحدد ماهية هذا المعنى بالضبط .. فما هى هذه الذات على وجه التحديد؟ وهل هى تعنى نية الإنسان فقط أم أن النية مفرد من مفرداتها.. ونعتقد أن هذه المعلومات لم تكشف لابن عربى مما أدى به إلى عدم التعرض لها .

* * * *

وهناك خطأ نود أن نصححه للدكتور وهو أن نية الإنسان ليست كما يتصورها [بوصلة موجهة إلى نقطة أو خط محدد] ، فتصوره السابق للنية جعله يقسم الحقائق أو النوايا إلى خيرة بطبيعتها وشريرة بطبيعتها ، فى حين أن النية هى الجهاز المسئول عن الاختيار فى كل لحظة يلزم فيها الاختيار بين البدائل .. وهذا الاختيار لدى أى إنسان – حتى ولو كان غير ذى عقيدة وبشهادة الدكتور نفسه – غير محكوم بمبدأ الحتمية العلمية فهو اختيار خير تارة وشرير تارة، ولم ولن تجد شخصاً كل اختياراته خيرة أو شريرة..

فالنية إذن جهاز موحد فى تكوين البشر جميعاً.

واختلاف الاختيارات من إنسان إلى آخر ليس مرجعه إلى حقيقة أو نية ثابتة على الخير أو الشر، وإنما يرجع إلى اختلاف حصيلة كل إنسان من معانى الخير والشر عن الآخر، فهو اختلافٌ فى درجة الحكمة وليس فى طبيعة الذات الأزلية. ﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً﴾ (البقرة - ٢٦٩)

والذى يؤكد هذا الفهم للنية هو اختلاف اختيارات الإنسان من طفولته إلى شبابه إلى شيخوخته، فلو أن اختيارات الإنسان محكومة بحقيقته أو نيته والتى هى إما خيرة أو شريرة لما اختلفت هذه الاختيارات من مرحلة إلى أخرى فى حياة الإنسان نظراً لثبات صفة هذه النية على الخير أو الشر.

* * * *

ومن مرئيات الدكتور أيضا أن العدم لا يمكن أن يكون معدوماً، لأنه لو كان معدوماً لما كان له معنى فى العقل.

ومعنى الكلام السابق أن العدم لا يمكن أن يكون بمعنى اللاشيئية، لأنه إذا كان كذلك لما كان له معنى واضح فى العقل، والحقيقة أن هذا الكلام غير صحيح لأن اللاشيئية

لها معنى في العقل، فهي تعني أن كل شيء يمكن إدراكه بحاسة من الحواس كالبصر أو السمع أو الشم أو اللمس ليس له وجود، أما كون الإنسان لا يستطيع تخيل اللاشيئية فليس معنى ذلك أنها غير ذات معنى .

* * * *

ومن العجيب أن الدكتور يرى أن ثنائية الوجود ضرورة حتمية لامعدى عنها لفهم الأمور.. لأننا إذا لم نكن أمام ثنائية وجود– أي وجود الخالق والمخلوق معاً منذ الأزل– فإننا إذن أمام وحدة وجود مطلقة، أي وحدة الخالق والمخلوق.

فإذا لم تكن ذوات المخلوقات – حسب قوله – حقائق أزلية، فإنها إذن مشتقة من ذات الله ، فيصبح الله هو الخالق والمخلوق وهو العابد والمعبود ويبطل حساب الإنسان على عمله.

والحقيقة أن هذا فهم قاصر؛ لأن خلق المخلوقات ليس إخراجاً لحقائق أو ذوات موجودة منذ الأزل، كما أنه ليس اشتقاقاً أو اقتطاعاً من ذات الله حتى يصبح الخالق والمخلوق شيئاً واحداً .

فالله سبحانه وتعالى لم يقتطع شيئاً من روحه حين نفخ فينا نفخة الحياة ولم يقتطع من رحمته حتى يهبنا هذه الصفة، فهو سبحانه وتعالى بعد خلق المخلوقات هو عينه قبل خلق المخلوقات ، ولم يزد ولم ينقص شيئاً ، ولم يصبح جزء منه داخل المخلوقات والآخر مستقلاً، والذى يحدث هو أنه سبحانه وتعالى يتجلى علينا بهذه الصفات فنكتسبها بمجرد التجلى.

فالإنسان مثلا قام باختراع الإنسان الآلى والذى وجد فى عقله كفكرة مجردة ثم حولها إلى حقيقة واقعة.. فهل يمكن لنا القول إن الإنسان الآلى مشتق من ذات الإنسان وإنهما فى الحقيقة شىء واحد.. كلا .. فالإنسان بعد اختراع الإنسان الآلى كما هو عليه قبل اختراعه، وإنما الإنسان الآلى هو الذى اكتسب ذاتاً وكياناً ومفهوماً مستقلاً .

وإذا كان الدكتور يعلم علم اليقين أن الله قادر على كل شىء فلماذا يستبعد أن يخلق الله كائناً حياً مستقلاً حر الاختيار ودون أن يكون له ذات فى العدم أزلية بخصائص أزلية ليست بجعل جاعل.

﴿أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلا وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون﴾ (يس ٨١ - ٨٢ - ٨٣)

* * * *

ولقد كنا نتصور وهو الحق قبل أن نقرأ هذه الفكرة أن الله قبل خلق الخلق كان وحده ولا شىء معه ، وحينما أراد أن يُعْبَد خلق الخلق .. وحتى يقوم الإنسان بدوره كخليفة لله على الأرض خلق له الكون وسخره له بكل مافيه .. أما بعد ثنائية الوجود فالصورة أصبحت غير ذلك .. فالله لم يخلق هذه المخلوقات حينما أراد أن يُعْبَد وإنما لأن ذوات هذه المخلوقات الموجودة فى العدم طلبت الظهور فأظهرها الله.

وطالما أن الدكتور أراد أن يحدث خللا فى الصورة السابقة - وهو مالم يحدث ولن يحدث - فكان عليه أن يعطى صورة أخرى متكاملة، ولكن ماحدث غير ذلك .. فالدكتور لم يوضح لنا مثلاً هل السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم أيضاً مخلوقات لها ذوات فى العدم وحينما طلبت الظهور أظهرها الله فى لبسة الوجود التى تناسبها؟ أم أنها خلقت دون استشارة ذواتها

فى العـدم ؟ أم أن هذه المخلوقـات لم يكن لهـا ذوات فى العدم من الأصل ؟

والدكتـور بين خـيـارات ثلاث إمـا أن يقـول : نعم لهـذه المخلوقات ذوات طلبت الظهور فـأظهرها الله وبالتالى ينفى عن الله إبداع هذا الكون وتصويره بما يناسب الحكمـة من خلقـه، أو يقـول : لا .. لقـد خُلِقَت هـذه المخلوقـات دون استشارة ذواتها فى العدم فينسب إلى الله الظلم والقهر ، أو يقول إن هـذه المخلوقات ليس لهـا ذوات أو حقـائق فى العدم من الأصل، وبالتالى ينفى عن هذه المخلوقات حياة قد أثبتها الله لها فى مواضع عديدة إذ يقول تعالى :

﴿ يسبح لله مافى السماوات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير﴾

(التغابن – ١)

كما يقول :

﴿ سبح لله مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ (الحديد – ١)

وعلى فرض أنه لم ينف عنها الحياة فإنه يكون قد أوقعها فى دائرة القهر والتى سبق وأن نفاها عن الخالق من قبل.

ومن مخاطر هذه الفكرة أنها تفتح ملفاً قد تم اغلاقه منذ أمدٍ بعيد وهو ملف بعنوان من خلق الله ؟

وفي هذا الملف سؤالان دائماً متتابعان .

أولهما من خلق الإنسان والكون الذى يعيش فيه ؟

وإجابة هذا السؤال الله هو الخالق. وبذلك تزول عن العقل غرابة وجود هذا الكون بما يحويه من مخلوقات.

أما السؤال الثانى فهو من خلق الله سبحانه وتعالى إذا كان لكل مخلوق خالق؟ وفى الإجابة على هذا السؤال يقول أحد الحكماء :

قبل أن يبحث المتدبر في كون الله عن خالق الخالق يجب أن يطمئن أولاً إلى وجود الخالق .. وإذا أراد أن يشك فى وجود الخالق فليحاول أن يشك فى وجود نفسه أولاً، فإذا استطاع أن يقنع نفسه أنه غير موجود فله الحق حين ذلك أن يؤمن بعدم وجود الله .

وبعد أن يطمئن المتدبر إلى وجود الخالق فليعلم أن سؤاله من خلق الخالق سؤالٌ سهل الإجابة ، وإجابته ليست ببيان المطلوب الاستفهام عنه، وإنما إجابته أن السؤال غير صحيح.

ولتوضيح ما سبق نحاول أن نتعرف معاً على أسباب خوف الناس من البحار والمحيطات فى قديم الزمان ، وقبل أن يمتطى الإنسان ظهورها .. لقد قيل فى ذلك إنه شعور الإنسان بضآلة حجمه أمام هذه المساحات الشاسعة من المياه، وليس ذلك هو السبب أو على الأقل ليس سبباً كافياً بذاته .. فهناك مثلاً الجبال العملاقة ومع ذلك لم يذكر التاريخ عنها من الأساطير ما ذكره عن البحار والمحيطات.. ولعل السبب الأساسى هو تلك الأسماك الطائرة التى كانت تقفز من أعماق المياه إلى ما فوق السطح ثم تهبط إلى المياه مرة أخرى حيث اقتنع من رآها من الناس أنها أشباحٌ .. ونسأل.. ما الذى دفع الناس إلى هذا الاعتقاد ؟ ولعل الإجابة على هذا السؤال هى نفس الإجابة على سؤال آخر وهو :

ما سبب وقوع الناس فى خطأ الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى له خالق ؟

إن تطبيق الأحكام الخاصة بالجنس البشرى على هذه المخلوقات المائية هو الذى أدى إلى الاعتقاد بأنها أشباحٌ وليست كائنات حية مختلفة عن البشر، فهم يتنفسون الهواء

ولا يستطيعون التنفس فى الماء .. ومن هنا فإنه لايمكن أن تكون هناك موجودات تستطيع الحياة فى الماء إلا إذا كانت أشباحاً .

وإذا كان تطبيق الأحكام الخاصة بالجنس البشرى على كائنات تعيش معهم فى نفس المحيط الكونى قد أدى إلى هذا الخطأ الجسيم، فأى خطأ يمكن أن يقع فيه الإنسان إذا حاول تطبيق أحكامه البشرية من أمثال (لكل مخلوق خالق) على خالق هذه الأحكام وخالقه وهو الله سبحانه وتعالى.

إن أحكام العقل البشرى وأدواته قارب مثقوب لايمكن له الإبحار فى محيط الذات الإلهية، ولا يستطيع الإنسان أن يعرف عن هذه الذات إلا القدر الذى كشفه الله سبحانه وتعالى له ، ولذلك يجب على الإنسان أن يجعل علمه بالذات الإلهية مقصوراً على ما كشفه الله سبحانه وتعالى عن نفسه، ولا يحاول البحث فيما سواها ؛ لأن الطريق فى مواجهة هذا البحث مسدود والفشل محقق وذريع.

هذا ما خُتم عليه ملف من خلق الله ؟

أما بعد ثنائية الوجود فإن الملف السابق سيتم فتحه من جديد لنسأل السؤال الأول - ولكن بشكل جديد فنقول: من خلق ذات الإنسان أو حقيقته الموجودة في العدم؟ وقول الدكتور بأنها حقائق أو نوات أزلية أي موجودة منذ الأزل بخصائصها ، وقوله بأنها ليست بجعل جاعل أي خالق لايجيب عن التساؤل السابق .

وإذا كنا سنقبل هذا الكلام الذي ذكره الدكتور عن هذه الذوات فمن باب أولى أن نؤمن بنظرية التطور والتي تحاول أن تفسر نشأة الكون والمخلوقات التي تعيش به بعيداً عن الإيمان بوجود خالق .. فأنصار هذه النظرية يعطون تصورات لهذه النشأة إن لم تكن صحيحة فهي على الأقل أكثر شمولاً وإقناعاً مقارنة بما ذكره الدكتور عن هذه الذوات أو الحقائق.

وبالطبع لا يمكن لنا الانتقال إلى إجابة السؤال الثاني وهو من خلق الله ؟ قبل الفصل بالقول في إجابة السؤال الأول وهو كما ذكرنا من قبل: من خلق نوات المخلوقات في العدم؟

* * * *

ومن ناحية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾

سورة (ص٧١-٧٢)

وحين نرجع إلى الآيات التى تناولت بيان كيفية خلق آدم عليه السلام نجدها لا تضيف خطوة جديدة إلى الخطوات الواردة فى الآية السابقة، وإن كانت تزيدها تفصيلاً ، فخلق آدم كما بينته الآية السابقة مرحلتان: الأولى مرحلة التسوية وفيها قام الله سبحانه وتعالى بتصوير آدم على الصورة التى أرادها له **﴿فى أحسن تقويم﴾** والمرحلة الثانية هى مرحلة نفخ الروح ، وهى المرحلة التى تدب فيها الحياة فى الجسد ويصبح التمثال إنساناً كما نعرفه .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد تجلى على الخاصة من عباده من أمثال ابن عربى بفكرة ثنائية الوجود، فإن الغرض من ذلك- منطقياً- هو أن يعرف الناس هذه الخطوة المفقودة من خطوات خلق آدم .. لأنه ليس من المعقول أن يكون هذا التجلى من أجل إعلام ابن عربى وحده، بدليل أن الفكرة قد انتقلت منه إلى غيره . فإذا توافرت لدى الله الحكمة من إعلام الناس عن طريق ابن عربى بأنهم كانوا نواتاً فى العدم وأنه

أخرجهم منه برغبة ذواتهم فى الظهور والفكاك من أغلاله .. فأين كانت هذه الحكمة أثناء نزول القرآن ؟

إننا أمام احتمالات متعددة .. فإما أن تكون هذه الحكمة معلومة لله أثناء نزول القرآن .. فنسأل عن سبب عدم تناول آياته لما ذكره ابن عربى بخصوص استخراج الذوات من العدم .. وإما أن تكون غير معلومة لله فى ذلك الوقت فنسأل وهل يستجد فى علم الله شىء لم يكن يعلم به من قبل .. وإما أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أراد لابن عربى ومن جاءوا فى عصره والتابعين لهم أن يعرفوا هذه الخطوة المفقودة دون من جاءوا قبلهم وهذا محال دون جدال.

* * * *

ومن المفاهيم التى أراد أن ينقلها لنا الدكتور أيضاً أن علم الله بهذه الذوات قديم وأزلى وأن هذا العلم ليس علم الخالق بما خلق وإنما هو علم كائنٍ بكائنٍ آخر من خلال ماكشفه هذا الأخير عن نفسه، فالله سبحانه وتعالى علم أن

هذه الذات خيرة أو شريرة ولم يجعلها كذلك، وعلم أن هذه الذات خنزيرية أو طاووسية ولم يجعلها كذلك ، والله لايغير من خصائص هذه الذوات أو الحقائق بأن يجعل الخيرة شريرة أو العكس أو الطاووسية خنزيرية أو العكس وإنما يتصرف في كل ذات على ماهى عليه .

ولا يتدخل الله سبحانه وتعالى بالتغيير فى ذات الإنسان أو حقيقته أو نيته إلا إذا طلب هو ذلك بالتضرع والدعاء إلى الله، ساعتئذ يتدخل الله سبحانه وتعالى ليصلح شأن العبد سيىء النية إلى حسن النية مستقيم الأخلاق والطباع ، وإذا كانت هذه المعطيات السابقة صحيحة لكان مقتضى العدل الإلهى الذى أعطى الفرصة للإنسان أن يغير من حقيقته أو ذاته عن طريق الدعاء والتضرع إلى الله أن يسمح لسائر الكائنات مثل الطاووس أو الخنزير أن يتطور هو أيضاً إلى مراتب حياتية أعلى من رتبته كأن يصبح إنساناً مثلاً عن طريق الدعاء والتضرع طالما أن الدكتور يقر لله بالقدرة على تغيير هذه الذوات أو الحقائق ويقر لبعض المخلوقات مثل الإنسان أن يرتقى بتغيير حقيقته أو ذاته من حالة أقل أو أردأ إلى حالة أعلى أو أفضل.

* * * *

ولقد قلنا من قبل :

إن الدكتور جعل خلق المخلوقات موقوفاً على إرادة ذواتها فى العدم من رغب منها فى الظهور أظهره الله ومن لم يرغب تركه الله على حاله مخالفاً بذلك قوله تعالى ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ ، ونقول إنه لم يخالف الآية السابقة فحسب وإنما تعارض مع نفسه إذ يقول فى كتابه (من أسرار القرآن) الصفحة الخامسة عشرة:

سنن كونية تعمل وقوانين أزلية تجرى فى خفاء واستمرار وتعمل دائبة على حفظ التوازن العجيب المعجز للمخلوقات، حتى يتقوى الضعيف ويضعف القوى، وحتى لا تطغى قوة على قوة، ولا تبتلع حضارة حضارة، ولا يفنى نوع من الأحياء نوعا آخر . تجد أمثلة ذلك فى عالم الحشرات وفى عالم النبات وفى عالم الإنسان وفى الطبيعة .. كلما تكاثرت حشرةٌ وتجاوزت معدلاتها أوجد لها الله عدواً طبيعياً يلتهمها ليعود التوازن إلى البيئة ولتجد جميع المخلوقات فرصاً متكافئة للحياة.. وهذا ما نراه فى جنوب السودان حيث يتوالد البعوض بكثرة هائلة فى الأماكن الموبوءة بالملاريا فتظهر له حشرة مضادة هى الحباحب المضيئة التى تغطى الأشجار بالملايين وتضىء لتجذب البعوض وتأكله .

وحينما تدخل الإنسان بالمبيدات الحشرية فإنه أخل بهذا التوازن وأدى بتدخله إلى كارثة تلوث البيئة.. وذلك لأن المبيدات قتلت الحشرات، وقتلت الطيور التى تأكل الحشرات ، ولوثت الحشائش والزراعات، وأمرضت البهائم التى ترعى هذه الحشائش، ثم أمرضت الإنسان الذى يأكل لحوم تلك البهائم، كما لوثت المجارى وقتلت الأسماك، فأفسدت البيئة كلها وأتلفت علاقاتها بضربة واحدة . ثم إنها قتلت الحشرة الضارة والمفيدة معاً .

ووجه التعارض غير خاف إذ إنه في الحديث السابق جعل خلق المخلوقات قلباً وقالباً لحكمة ولغاية أرادها الله سبحانه وتعالى فى حين أنه ذكر في ثنائية الوجود أن خلق هذه المخلوقات موقوف على إرادة ذواتها فى العدم.. من رغب منها فى الظهور أظهره الله ومن لم يرغب تركه الله على حالة، وبذلك ينفي العلاقة بين خلق المخلوقات وإرادة الله وحكمته من خلقها ، فهو- سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً- ليس له أن يخلق كائناً لم ترغب ذاته فى الخروج من ظلمات العدم ونيرانه، حتى ولو كان فى خلقه مصلحة أو حكمة .

ونود أن نسـأل الدكتور .. كيف يكون العدم ناراً كما يقول ابن عربى وبعض الذوات تطلب الخروج منه والأخرى لاترغب في الخروج ؟ أليس تأثير النار موحداً على كل هذه الذوات، وهل يعني ذلك أن النار كان لها وجـود قبل خلق الكون؟

إن كلام ابن عربى إما أن يكون حقيقة فتكون النار هى النار التى نعرفها وبذلك يصبح قبول بعض هذه الذوات البقاء فى العدم مثيراً للغرابة، وإما أن يكون تشبيهاً لبيان مدى صعوبة بقاء الذوات فى العدم وبذلك يظل السؤال مطروحاً:

ما الذى يجعل بعض هذه الذوات قادراً على البقاء فى العدم الذى لا يطاق وبعضه يرغب فى الخروج والفرار إلى الوجود ؟

* * * *

ونود أن نسأله عن يوم القيامة.. هل هو اليوم الذى تنتهى فيه حكمة استمرار الحياة على الأرض لدى الله سبحانه وتعالى ؟

أم ذلك الذى تصبح فيه الذوات المتبقية فى العدم غير راغبة فى الظهور؟

أم أنه اليوم الذى تخرج فيه كل الذوات الموجودة فى العدم إلى الوجود؟ وإذا كان العدم حضرة كاملة لها خصائصها الأزلية كما يقول الدكتور فمن الذى أكسب هذه الحضرة خصائصها؟

ومن الذى خلق هذه الذوات التى تعيش فى جوف العدم؟

وإلى أي شىء يرجع اختلاف هذه الذوات عن بعضها البعض؟

وهل عدد هذه الذوات لا نهائى أم أنه عدد محدود؟

وما سر رغبة بعض الذوات فى الخروج من العدم وتمسك البعض الآخر به ؟

وهل يقبل الدكتور أن تكون هناك حضرة ليس لها خالق غير الحضرة الإلهية؟ وإذا بحثنا عن سبب تكرار الدكتور لهذه الفكرة فى مواضع مختلفة من مؤلفاته لوجدناه فى أعماق نفسه وليس خارجه.. فالدكتور يحب أن يقدم أفكاراً جديدة غير متداولة بين القراء ويحرص على تمتع هذه الأفكار بعنصر الإثارة حتى ولو دفعه ذلك إلى عدم التروى

فى بحث أفكاره قبل أن يقدمها للناس بما فيهم من عناصر قابلة لا تملك أدوات الفحص والتمييز بين الخطأ والصواب.. الخبيث والطيب .. وهذا الكلام ليس محض افتراء وادعاء وتخمين وإنما استدلال من أقواله .. ولمن أراد أن يتأكد من صحة ذلك فليرجع إلى كتابه (القرآن محاولة لفهم عصرى) الصفحة التاسعة والتسعين بعد المائة وفيها يحاول الدكتور أن يقنع القارىء بوجود الروح بالأدلة والبراهين ، وأثناء سرده لأحد الأدلة قال بالنص :

ولعشاق الفلسفة نقدم دليلاً آخر على وجود الروح من الخاصية التى تتميز بها الحركة ؟ فهو يهتم بعشاق الفلسفة ويقدم لهم من الأفكار الغامضة والمثيرة ما يناسب عقولهم المتميزة.

ونقول لمن قرأ ما سبق ولم يقتنع بنسبة هذه الفكرة للدكتور كمعتنق وباعث لها من التراث الصوفى يمكنك الرجوع إلى كتابه (الروح والجسد) المقال الأخير بعنوان (هل كان لنا وجود قبل أن نولد) وهناك ستجده يتحدث عن ثنائية الوجود بلسانه مباشرة ودون أن ينسب الكلام إلى ابن عربى أو غيره، ونذكر من هذا المقال- قول الدكتور:

أنا لست مسألة طارئة استجدت بالميلاد وستنتهي بالموت ولو أنني كنت أمراً طارئاً زائلاً لما كنت حقيقة، بل مجرد ظاهرة موقوتة، تلمع ثم تختفي فلا تعود ، ولا تصبح هناك حكمةٌ في بعث وحساب وعقاب .. وعلام العقاب ولا حقيقة هناك ، ولمن أراد المزيد أن يرجع إلى هذا الكتاب (الروح والجسد) الصفحة الخامسة والتسعين ليقرأ مقال الدكتور كاملاً .

* * * *

وقد استخدم الدكتور العديد من الآيات القرآنية لتأييد فكرته منها قوله تعالى ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ (مريم - ٩)

والحقيقة أن الدكتور لم يفسر هذه الآية ولم يوضح كيفية دلالتها على ثنائية الوجود التي يقول بها، وإن كنا نلاحظ أن الآية السابقة ضد هذه الفكرة عمودياً على صراط مستقيم.. فمعنى الآية أن الإنسان قبل أن يخلق لم يكن شيئاً مذكوراً على الإطلاق مادياً أو معنوياً فهو مستحدث بكل تكوينه المادى والمعنوى إلا إذا حمل الدكتور الآية فوق طاقتها أو أضاف إليها من خياله كعادته فى الاستدلال بالآيات القرآنية.

واستدل بقوله تعالى :

﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾

(النحل - ٤٠)

وقال في تفسير هذه الآية فيوجه الله الخطاب (أن نقول له) أى لتلك الحقيقة في العدم وكأنما لها كينونة من نوع ما .. وكأنما العدم غير معدوم.

والحقيقة أن تفسير الدكتور تحميل للآية فوق طاقتها وتطويع لها حتى تتمشى مع اعتقاده الشخصى ، لأن توجيه الخطاب في قوله تعالى (أن نقول له) عائدٌ على ذلك الشيء الذى أراده الله أى أن أصل الجملة (أن نقول لهذا الشيء الذى أردناه) .. ومن المعلوم أن الشيء الذى يريد الله خلقه هو كائن يمكن توجيه الخطاب إليه من الله ولو قبل خلقه لأنه لا ولن يوجد ما يعوق الله سبحانه وتعالى عن خلق هذا الشيء ، وحتى من الناحية اللغوية فإن الضمير فى (له) غير مناسب للحقيقة التى يشير إليها الدكتور، إذ يناسبها أن نقول (لها) وليس (له) .

واستدل بقوله تعالى:

﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾

وقال تحت هذه الآية :

وهذا الإخراج من الظلمة إلى النور هو عين ما يقول به ابن عربى فى الإخراج من العدم ، فى حين جاء معنى (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) فى تفسير ابن كثير أنه بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين، والذى يؤكد هذا التفسير وصحته وخطأ تفسير الدكتور وبعده عن الحقيقة هو ختم الآية بقوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما)، فلو كان المقصود هو الإخراج من العدم إلى الوجود لقال الله تعالى (وكان بالناس رحيما) لأن الإخراج من العدم إلى الوجود كان للناس جميعاً وليس للمؤمنين خاصة، ولوضع فى الذاكرة البشرية تلك الحقبة الزمنية التى يدعى الدكتور أننا قضيناها فى العدم بما فيها من ظلمة ومعاناة حتى لايصبح قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) زيادة غير واضحة المعنى .

وفهم الآية وفقاً لتفسير ابن كثير هو الصواب المؤيد بالواقع، فالحياة قبل الرسالة المحمدية هى الظلمة بكل ماتحمل الكلمة من معنى، والحياة بعد الرسالة هى النور الحقيقى الذى لايمكن الحياة بدونه لا نور المصابيح الذى عشنا قبله وبعده دون فارق ، والانتقال من الحياة السابقة إلى اللاحقة هو الرحمة بعينها.

وتأييداً لنفس المعنى السابق جاء معنى قوله تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ فى تفسير ابن كثير - أى رحيما بهم فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذى ضل عنهم وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة، ، وأما رحمته بهم فى الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة والفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا بمحبته لهم ورأفته بهم.

ولذلك فإننا نقول باطمئنان إن تفسير الدكتور الذى يتمشى مع اعتقاد ابن عربى لا يمكن أن يقبل على أنه المعنى الوحيد للآية ولا على أنه معنى خفى بجانب معناها الأصلى لأنه معنى بعيد للغاية، ولم يأتنا من أهل التفسير

والتأويل، وإنما من أهل التصوف والشطحات التي قلما تتفق مع الكتاب والسنة .

واستدل بقوله تعالى :

﴿ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض﴾ (النمل - ٢٥)

وأراد بذلك أن الله يخرج الخبء من الذوات الموجودة فى العدم.. فى حين جاء معنى (الخبء فى السماوات والأرض) فى تفسير ابن كثير أنه ماجعل فيهما من الأرزاق.. المطرُ من السماء والنبات من الأرض، ويرى أن ذلك مناسب من كلام الهدهد الذى جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء فى تخوم الأرض وداخلها .. بالإضافة إلى أن الآية حددت موضع هذا الخبء بأنه فى السماوات والأرض.. والدكتور يفترض وجود هذه الذوات فى العدم وليس فى السموات والأرض.

واستدل بقوله تعالى :

﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ (التوبة - ٦٤)

وأراد بذلك أن الله يجلو ما تضمره النوايا في العدم .

والحقيقة أنه يكفينا لدحض هذا الدليل ودون أن نرجع إلى كتب التفسير أن نشير إلى أن الدكتور أتى بآخر الآية الرابعة والستين من سورة التوبة وترك بداية الآية كصاحبنا الذى قال : (ويل للمصلين) ثم صمت، وذلك لأن بداية هذه الآية تكشف أنها لا تتحدث عن ذوات أو نوايا في العدم وإنما تتحدث عن المنافقين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وكيف أنهم كانوا يظهرون له خلاف ما يضمرونه في أنفسهم والآية كاملة تقول :

﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ (التوبة– ٦٤)

واستدل بقوله تعالى :

﴿والله مخرج ماكنتم تكتمون﴾ (البقرة – ٧٢)

وأراد بذلك أن الله يخرج ماتكتمه الذوات في العدم ويكشف طبائعها خيرة كانت أو شريرة. والرجوع إلى هذه الآية في سورة البقرة كاف لإثبات عدم إمكانية استفادة هذا المعنى منها ويكشف أنها لا تتحدث عن قاعدة عامة وإنما تتحدث

عن واقعة محددة. فالدكتور أيضاً قد أتى بآخر الآية الثانية والسبعين وترك بدايتها ، والآية كاملة تقول :

﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنت تكتمون ﴾ (البقرة - ٧٢)

واستدل بقوله تعالى :

﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ (محمد - ٢٩)

ومعنى الآية السابقة فى تفسير ابن كثير - أى أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر.

والملاحظ أن معظم الآيات التى استعان بها الدكتور هى آيات نزلت فى مناسبات معينة بسبب وجود فئات من المنافقين معاصرين لنزول هذه الآيات أو سابقين لها بما يسببه وجود هذه الفئات من خطورة على الإسلام، فهم مسلمون فى الظاهر كفار السرائر . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يكشف هذه الفئات ليقضى على خطورتها .

وإن اشتملت الآيات السابقة على كشف لما تضمره

من حياتها وليس هناك أى إشارة من قريب أو بعيد على أن المقصود ما تضمره هذه الذوات فى العدم – ولو كان هذا النفاق ملازماً لذات صاحبه فى العدم على فرض صحة كلام الدكتور– لما رأينا رجوع العديد من المنافقين عن نفاقهم وتوبتهم إلى الله .

وتحدث الدكتور فى كتابه (الروح والجسد) فى مقال أخير بعنوان – هل كان لنا وجود قبل أن نولد – عن سابقة وجودنا قبل أن نمر بتاريخنا الطويل منذ خلق الله والدينا آدم وحواء ولكنه لم يقصد هذه المرة الإشارة إلى ذوات المخلوقات فى العدم وإنما أشار إلى تواجدنا فى أحسن صورة قبل أن نرد إلى أسفل سافلين أى الصورة التى نحن عليها الآن فى الدنيا .. وقد قال الدكتور فى هذا المعنى :

وفى القرآن الكريم إشارة خاطفة إلى هذه السابقة الوجودية قبل الميلاد **﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾** (التين : ٤ – ٦)

ويتابع الدكتور قائلاً :

ومعنى ذلك أنه كان هناك خلق أولى على أحسن تقويم.. وهذه الخلقة لا يمكن أن تكون خلقتنا التى نعرفها فى الدنيا فجسمنا الذى يتعب ويمرض ويتلف ويشيخ ويموت.

والله يصف كمال خلقة السماء فيقول :

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ (ق - ٦)

أى ليس بها ثغرات أو نقاط ضعف ومع ذلك فقد جعل الله فى خلقتنا فرجاً وثغرة هى مدخل الشهوة والهوى ، بل أنه سمى هذا الفرج سوأه وعورة وقال فيما فعل إبليس بآدم وحواء بأنه **﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾** (الأعراف - ٢٧)

فكيف يكون بالخلق الذى جعله الله فى أحسن تقويم ثغرة وسوأة وعورة، ولماذا سمى حياتنا هنا بالحياة الدنيا أو (السافلة أو الواطئة) إلا أن تكون هذه الحياة هى أسفل سافلين التى رددنا جميعا إليها بعد النشأة الكاملة فى أحسن تقويم ، أهبطنا الله فى هذه الجبلة الطينية التى بها الفرج والسوأة لنعيش حياة الابتلاء والمعاناة والمكابدة.

﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ (البلد - ٤)

يحرمنا مما نحب ويحملنا ما نكره ليرى كيف يكون صبرنا واحتمالنا ولتظهر بذلك صفاتنا . وإنما يظهر الإنسان على حقيقته إذا حرم مما يحب ، وإذا حمل ما يكره فهنا تتفاضل النفوس.. فهناك نفسٌ تحمد وتشكر ولا تعترض وتفوض الأمر لله.. وهناك نفس تعاتب ربها وتحتج، وهناك نفس تسب الملة والدين وتتشاجر مع الله ومع الناس وهناك نفس تتعجل وتقتل وتعتدى لتصلح حالها وتنهى حرمانها .

وهكذا تتفاضل النفوس وتظهر الحقائق ، ومن أجل هذا خلق الله الدنيا وأنزلنا إلى هذا المنزل فى أسفل سافلين لتظهر لنا حقائقنا وما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق وللحق ولإظهار الحق .

وفى آية أخرى يقول :

﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾

(الإنسان - ٢٨)

ولقد فهم السلف (شد الأسر) بأنه أشبه بشد دعائم البناء وتقويته ويتابع الدكتور قائلاً :

ولكنى أقول : ولماذا لا نأخذ المعنى على ظاهره بأن الله وضعنا فى الأسر فى أسر الجبلة الطينية وشد وثاقنا وبهذا أنزلنا من مرتبة الخلق فى أحسن تقويم إلى عالم أسفل سافلين وهو إهباطٌ عام لا استثناء فيه وإنما استثناء الصالحين فى الآية .. هو استثناء فى الأجر بعد الموت.

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ (التين - ٦)

فالصالحون أيضا يردون إلى أسفل سافلين ولكن لأنهم صبروا واحتسبوا وسابقوا إلى الخيرات، فلهم بعد الموت والخروج من عالم أسفل سافلين أجر غير مقطوع فى الجنة. أما المجرمون فمصيرهم بعد الخروج من أسفل سافلين بالموت العقاب بأسفل سافلين أخرى هى العذاب الأبدى فى الآخرة.. فهم فى أسفل سافلين أبداً .

والحقيقة أن هذا الكلام غير صحيح، وأن أحسن صورة للإنسان هى تلك التى يحيا بها فى الحياة الدنيا.

وحول الخلقة فى أحسن تقويم جاء فى تفسير ابن كثير مايلى :

وقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) هذا هو المقسم عليه وأنه تعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة وشكل منتصب القامة سوى الأعضاء حسنها (ثم رددناه أسفل سافلين) أى إلى النار قاله مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيرهم إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل ولهذا قال (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال بعضهم (ثم رددناه أسفل سافلين) أى إلى أرذل العمر، وروى هنا عن ابن عباس وعكرمة حتى قال عكرمة من جمع القرآن لايرد إلى أرذل العمر، واختار ذلك ابن جرير ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك لأن الهرم قد يصب بعضهم وإنما المراد ما ذكرناه كقوله تعالى :

(والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله تعالى : **﴿فلهم أجر غير ممنون﴾** أى غير مقطوع كما تقدم . ونقول للدكتور :

إنه إذا كان من اللازم لكمال خلقة السماء أن تكون بلا ثغرات أو نقاط ضعف فإنه ليس من اللازم أن يكون الإنسان بلا ثغرات ، فالإنسان والسماء ليسا من جنس واحد ، وكل منهما مخلوق له خصائص وتركيب مخالف للآخر .

والإنسان فى حالته هذه فى حالة توازن عجيب بين روحه وجسده.. عقله وعواطفه .. ضميره وغرائزه ، حتى مشاعره لابد أن تكون مزدوجة فهو يحب ويكره.. يرضى ويسخط، وفقدان أى جانب من هذه الجوانب يجعلنا أمام مخلوق آخر تماماً فكيف يجعل الدكتور من مقتضيات كمال الإنسان أن يكون بلا غرائز .

إن رفع الغرائز عن الإنسان والتى تحقق له توازنه كفيلٌ بتغيير ذاتية الإنسان وتغيير جميع العلاقات التى يدخل طرفا فيها حتى علاقته مع خالقه.

ولو كان هذا الكلام صحيحاً فلماذا جعل الله فى الجنة ماتشتهى الأنفس ، وما قيمة قطوف الجنة الدانية، وما قيمة الحور العين ، ولحوم الطير ، إذا كان الخلق فى أحسن تقويم هو خلق نورانى مبرأ من الشهوات والغرائز وهو الذى سنعيش به فى الجنة. وإذا كان التركيب الذى نعيش به فى الدنيا يشيخ ويمرض ويتبول ويعرق فهى نقائص موقوتة سيتم رفعها عن الإنسان وسيصبح له جسد يناسب الخلود ولا يعلم ماهية هذه النشأة الأخرى إلا الله سبحانه وتعالى وأعتقد أنه خير ما نختم به بحثنا هذا قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾

صدق الله العظيم (الكهف - ٥١)

ثنائية الوجود

فى كتاب

ابن القيم الجوزية

تحدثنا فى البحث السابق عن فكرة ثنائية الوجود، وكشفنا عن مدلولها وفقاً لتصور الدكتور مصطفى محمود الذى بعثها من مقابر الأفكار.

وجدير بالذكر أن هذه القضية ليست جديدة، وأنها كانت محل خلاف بين السلف، وليس هناك أدل على ذلك من تناول ابن القيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ للقضية بالبحث والدراسة فى كتابه (الروح).

وفكرة ثنائية الوجود وإن كانت من إلهامات ابن عربى -كما يقول الدكتور- إلا أنه لا يمكن القول بحتمية إنشائه لها.. ومن هنا فإنه لايمكن تحديد تاريخ ميلاد لها على وجه الدقة.. وإذا رجعنا لكتاب الروح لابن القيم الجوزية الصفحة الثلاثين بعد المائتين نجده يتساءل: هل الروح قديمة أم محدثة مخلوقة؟

وهذا السؤال يعنى هل الأرواح التى نفخها الله فى بنى آدم مخلوقة أى خلقها الله من العدم أم هى قديمة موجودة مع الله منذ الأزل أى ليس لها بداية وليس لها خالق ؟ وقد

يبدو للقارىء للوهلة الأولى أنه ليس هناك علاقة بين قضية ثنائية الوجود وقضية قدم الروح أو حداثتها .

ولكى نعلم إن كانت هاتان القضيتان قضية واحدة ذات اسمين أم قضيتين مختلفتين بالفعل - أقول لتوضيح ذلك فإنه يلزم فهم العلاقة بين الروح والنفس .. هل هما كلمتان مترادفتان أم مختلفتان ؟

نقول بادىء ذى بدء ان هذه القضية غير محسومة، إذ لاأحد يدرى ماهى حقيقة الروح حتى يحدد علاقتها بأى شىء كائن ماكان .. إذن ليس أمامنا سوى تحديد العلاقة بين الروح والنفس كما يتصورها الدكتور وكما يتصورها ابن قيم الجوزية .

يرى الدكتور أن الروح تختلف عن النفس إذ يقول فى كتابه (القرآن كائن حى) :

فى اللغة الدارجة نخلط بين النفس والروح، فنقول إن فلاناً طلعت روحه.. ونقول إن فلاناً روحه تشتهى كذا ، أو أن روحة تتعذب ، وأن روحه توسوس له ، أو أن روحه زهقت، أو أن روحه اطمأنت ، أو أن روحه تاقت واشتاقت أو ضجرت وملت.. وكلها تعبيرات خاطئة، وكلها أحوال تخص النفس وليس الروح. فالتى تخرج من بدن الميت عند الحشرجة والموت هى نفسه وليس روحه. يقول الملائكة فى القرآن للمجرمين ساعة الموت :

﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾

(الأنعام - ٩٣)

والتى تذوق الموت هى النفس وليس الروح

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ (آل عمران - ١٨٥)

والنفس تذوق الموت ولكن لا تموت .. فتذوقها الموت هو رحلة خروجها من البدن ، والنفس موجودة قبل الميلاد، وهى موجودة بطول الحياة، وهى باقية بعد الموت ، وعن وجود الأنفس قبل ميلاد أصحابها يقول الله : إنه أخذ الذرية من ظهور الآباء قبل أن تولد وأشهدها على ربوبيته حتى لا يتعلل أحد بأنه كفر لأنه وجد أباه على الكفر.

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ (الأعراف - ١٧٢)

فذلك مشهد أحضرت فيه الأنفس قبل أن تلابس أجسادها بالميلاد ، وليس لأحد عذر بأن يكفر بعلة كفر أبيه، فقد كان لكل نفس مشهد مستقل طالعت فيه الربوبية .. وبهذا استقرت حقيقة الربوبية فى فطرتنا جميعاً.

ثم أن الروح لا توسوس، ولا تشتهى ولا تهوى ولا تضجر ولا تمل ولا تتعذب ، ولا تعاني هبوطاً ولا انتكاساً. إنما تلك كلها من أحوال النفس وليس الروح.

يقول القرآن :

﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله﴾ (٣٠- المائدة)

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه﴾ (١٦-ق)

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (٧،٨-الشمس)

﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾ (١٨-يوسف)

﴿وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لها ملجأ من الله إلا إليه﴾ (١١٨-التوبة)

﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم﴾ (٥٥-التوبة)

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ (١٣٠ البقرة)

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (٩- الحشر)

﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ (١٢٨-النساء)

﴿وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء﴾ (٥٣-يوسف)

فالنفس هى المتهمة فى القرآن بالشح والوسواس والفجور والطبيعة الأمارة ، وللنفس فى القرآن ترق وعروج، فهى يمكن أن تتزكى وتتطهر، فتوصف بأنها لوامة وملهمة ومطمئنة وراضية ومرضية.

﴿ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى﴾ (٢٧ - ٣٠ الفجر)

أما الروح فى القرآن فتذكر دائماً بدرجة عالية من التقدير والتنزيه، والتشريف، ولا يذكر لها أحوال من عذاب أو هوى أو شهوة أو تطهر أو تدنس أو رفعة أو هبوط أو ضجر أو ملل، ولا يذكر أنها تخرج من الجسد أو انها تذوق الموت.. ولا تنسب إلى إنسان وإنما تأتى دائماً منسوبة إلى الله.

يقول الله عن مريم :

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا﴾ (١٧-مريم)

ويقول عن آدم :

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ (٢٩-الحجر)

ويقول روحى ويقول روح آدم ، فينسب ربنا الروح لنفسه دائماً.

﴿وأيدهم بروح منه﴾ أى من الله (٢٢-المجادلة)

ويقول عن القرآن ونزوله على النبى عليه الصلاة والسلام:

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾

(٥٢-الشورى)

ويقصد بالروح هنا (الكلم الإلهى القرآنى)

﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ (١٥- غافر)

﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ (٢ -النحل)

والروح هنا هى الكلمة الإلهية والأمر الإلهى.

والروح دائماً تنسب إلى الله، وهى دائماً فى حركة من الله وإلى الله ولا تجرى عليها الأحوال الإنسانية ولا الصفات البشرية.. ولا يمكن أن تكون محلاً لشهوة أو هوى أو شوق أو عذاب . ولهذا توصف الروح بأوصاف عالية.

فيقول القرآن عن جبريل : أنه روح القدس.. والروح الأمين.

ويقول عن عيسى انه **﴿رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾** أى روح من الله

(١٧١ النساء)

أما النفس فهى دائماً تنسب إلى صاحبها

﴿وما أصابك من مصيبة فمن نفسك﴾(٧٩-النساء)

(من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) (١٥ الإسراء)

﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ (١١٨ التوبة)

﴿وما أبرىء نفسى﴾ (٥٣ يوسف)

﴿وكذلك سولت لى نفسى﴾ (٩٦- طه)

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾

(٩ - الحشر)

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ (١٣٠- البقرة)

وحينما تنسب النفس إلى الله فتلك هى الذات الإلهية.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (٢٨ آل عمران)

ذلك هو الله الذى ليس كمثله شىء وهو مما لا يستطيع الإنسان أن يتخيل له شبيهاً ولا يصح أن نقيس النفس الإلهية على نفوسنا . . فالنفس الإلهية هى غيب الغيب.

يقول عيسى لربه يوم القيامة :

﴿تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك﴾

(١١٦-المائدة)

فالنفس الإلهية لا تتشابه مع النفس الإنسانية إلا فى اللفظ ولكنها شىء آخر البتة..

﴿ليس كمثله شىء﴾ (١١ الشورى)

﴿لم يكن له كفواً أحد﴾ (٤١ الإخلاص)

هذا هو تصور الدكتور مصطفى محمود للعلاقة بين الروح والنفس ، ولمعرفة هذه العلاقة فى تصور ابن قيم الجوزية يلزم الرجوع إلى كتابه (الروح) الصفحة السابعة والأربعين بعد المائتين إذ يقول : والروح فى القرآن على عدة أوجه..

إحداها الوحي كقوله تعالى : **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾** (٥٢ الشورى).

وقوله تعالى :

﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ (١٥ غافر)

وسمي الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثاني : القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين كما قال **﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾**.

الثالث : جبريل كقوله تعالى **﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾** (١٩٣ ، ١٩٤) الشعراء .

وهو روح القدس قال تعالى **﴿قل نزله روح القدس﴾** (النحل - ١٠٣)

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى **﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون﴾** وقوله تعالى **﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم﴾**

(الأولى ٣٨ النبأ والثانية (القدر ٤)

الخامس: المسيح ابن مريم قال تعالى **﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾** (١٧١ النساء)

وأما أرواح بنى آدم فلم تقع تسميتها فى القرآن إلا بالنفس قال تعالى :

﴿ياأيتها النفس المطمئنة﴾ (٢٧ الفجر)

وقال

﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ (٢ القيامة)

وقال

﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ (٥٣ يوسف)

وقال

﴿أخرجوا أنفسكم﴾ (٩٣ الأنعام)

وقال

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (٧ ، ٨ الشمس)

وقال

﴿ كل نفس ذائقة الموت﴾ (١٨٥ آل عمران)

وأما فى السنة فقد جاءت بلفظ النفس والروح. الله

والملاحظ أن أياً من العالمين الجليلين لم يحدد ماهى طبيعة الروح أو طبيعة النفس ، وهذا أمر طبيعى ، ونحن لانطلب منهما ذلك، وبالقطع هما لم يحاولا الوصول إلى هذه النتيجة.. وكذلك أياً منهما لم يحدد فارقاً جوهرياً بين الروح والنفس يتجلى فى كل موضع ذكرت فيه كل كلمة بحيث يمكن القول إن كلمة النفس لا تصلح فى هذا الموضع بدلاً من كلمة الروح أو العكس.

ورغم ذلك فإنه يكمن فى حديث كل منهما عن الروح والنفس مايدل دلالةً قاطعةً على أن قضية ثنائية الوجود وقضية قدم الروح أو حداثتها هما قضية واحدة ذات اسمين .. فابن قيم الجوزية يرى أن أرواح بنى آدم لم تقع تسميتها فى القرآن إلا بالنفس ، ومعنى ذلك أنه يرى ترادف معنى الكلمتين حين يتعلق الأمر ببنى آدم، ويتفق هذا الكلام مع تصور العالم والشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى للعلاقة بين الروح والنفس والجسد إذ يتصور أن النفس هى حاصل التقاء الروح بالجسد فحين تلتقى الروح بالجسد ينشأ ما يسمى بالنفس البشرية والتى هى ناتج التقاء الروح بالجسد.

فابن القيم إذن حين يتحدث عن الروح هل هى مخلوقة أم غير مخلوقة، فإنه فى الوقت نفسه يتحدث عن النفس هل هى مخلوقة أم غير مخلوقة؟ لأنه يرى أن أرواح بنى آدم لم تقع تسميتها فى القرآن إلا بالنفس .

وحين ننتقل إلى الدكتور مصطفى محمود نجده يستبعد كلمة الروح ويستبدلها بالنفس أثناء حديثه عن ثنائية الوجود.. فيقول فيما معناه: إن هناك شيئاً من الإنسان لم يخلقه الله ، وهذا الشىء موجود منذ الأزل أى ليس له بداية وأسماه (حقيقة نفس الإنسان أو جوهر نفس الإنسان أو ذات الإنسان أو الكيان الثابت فى العدم) ، ونعتقد أن الذى

دفع الدكتور إلى استخدام كلمة النفس بدلاً من الروح هو تصوره للروح على أنها إكسير الحياة، فالروح من البشر كالبنزين من السيارات . فكلاهما مصدر الحياة رغم إختلاف المفردات التى تحيا بالطاقة الكامنة فيهما . فكأن الروح شىء ذو طبيعة موحدة فى كل البشر، وكذلك إرجاعه للاختلاف بين طبائع الناس إلى اختلاف النفوس وليس الأرواح؛ ومن هنا كان استخدام تعبير ذوات النفوس أو جواهر النفوس هو الأرجح فى تصوره ، لأن النفوس هى أساس الاختلاف بين الناس ، وهى الموصوفة فى القرآن بالمراتب المختلفة.. فالاختلاف إذن ليس فى أصل الفكرة وإنما فى اختيار الكلمة المناسبة للتعبير عن ذلك الشىء من الإنسان الذى وجد منذ الأزل دون أن يخلقه الله.. فأنصار قدم الروح يطلقون عليه كلمة الروح وأنصار ثنائية الوجود يطلقون عليه (جوهر نفس الإنسان أو حقيقة نفس الإنسان أو الكيان الثابت فى العدم).

* خلاصة القول إن القاسم المشترك بين قضية (ثنائية الوجود) وقضية (قدم الروح أو حداثتها) هو أن القائلين بثنائية الوجود هم أنفسهم القائلون بقدم الروح أو أن الروح أزلية غير مخلوقة.

فكل من الفريقين يحاول أن يثبت أن هناك شيئاً من الإنسان لم يخلقه الله ، فهو قديم أى ليس له بداية.

وجدير بالذكر أن هناك فارقاً جوهرياً بين كلا الفريقين فى الباعث على اعتناق فكرته .. فأنصار ثنائية الوجود لجئوا إلى فكرتهم لإثبات أن الإنسان مخير وليس مسير.. إذ إنه يختار أفعاله بناء على حقيقة نفسه خيرة كانت أم شريرة، وحقيقة نفسه هذه غير مخلوقة .. إذن فلا تسيير هناك.. ولا ادعاء بأن الله هو خالق النفس الخيرة والشريرة.. أما أنصار قدم الروح وهم من قالوا إن الروح ليست مخلوقة من مخلوقات الله وإنها قديمة ليس لها أول - أقول إن هؤلاء قد أخطئوا فى فهم وتأويل بعض الآيات القرآنية وليس لديهم باعث معين فمثلاً هم يستدلون على قدم الروح بقوله تعالى :

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾

فالروح كما أوضحت الآية السابقة - وفق تفسيرهم - من أمر الله ، وكل شيء من أمر الله فهو قديم غير مخلوق.. لأن أمر الله قديم غير مخلوق، وإنما أزلى ليس له بداية.

ويسوق ابن قيم العديد من الأدلة على خطأ هذا الفهم، ولمن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب الروح لابن القيم الجوزية.

وقد نكون قد أخطأنا في الربط بين القضيتين وإيجاد قاسم مشترك بينهما ، ولكن لا أعتقد أني مخطيء حين أقول إن الأدلة التي ساقها ابن قيم على أن الروح مخلوقة من مخلوقات الله هي أدلة صالحة للإضافة على ما أوردنا من أدلة في دفع القول بثنائية الوجود - وسوف نذكر هذه الأدلة فيما بعد ..

ونعود إلى ابن قيم الجوزية.. فنقول إنه بعد أن طرح سؤاله.. هل الروح قديمة أم محدثة مخلوقة ؟ فنجده يستهل الحديث في هذه القضية قائلاً :

فهذه مسألة زل فيها عالم، وضلت فيها طوائف من بني آدم. وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة.. هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وما سواه مخلوق له،

وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضلى على ذلك من غير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة من قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم انها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده، وتوقف آخرون فقالوا لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة.

وبعد هذه المقدمة نسوق الأدلة التى أوردها ابن قيم الجوزية لدحض هذا الادعاء بقدم الروح عند القائلين بذلك، وتحطيم خرافة ثنائية الوجود عند من قال بها ومن أيدها ومن شرحها ومن باعها فى مطبوعات ومن حمل المطبوعات ومن اشتراها.

يقول ابن قيم الجوزية فى كتابه (الروح) الصفحة الخامسة والثلاثين بعد المائتين:

والذى يدل على أن الروح مخلوقة وجوه عدة:

الوجه الأول: قول الله تعالى (الله خالق كل شىء) فهذا اللفظ عام ولا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل فى ذلك صفاته فإنها داخلة فى مسمى باسمه فالله سبحانه هو

الإله الموصوف بصفات الكمال ، فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل فى مسمى اسمه وليس داخلاً فى الأشياء المخلوقة، كما لم تدخل ذاته فيها فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق.

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته، وإنما هى مصنوع من مصنوعاته فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والإنس والجن.

الوجه الثانى : قوله تعالى لزكريا (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط فإن البدن وحده لا يفهم ولا يُخاطب ولا يعقل وإنما الذى يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

الوجه الثالث: قوله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (٦٩ الصافات)

الوجه الرابع : قوله تعالى ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾

(١١ الأعراف)

الوجه الخامس: النصوص الدالة على أنه : ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شيء وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا فالأرواح مربوبة له مملوكة كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق.

الوجه السادس : أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة وجوه :

الأول : (الحمد لله رب العالمين) والأرواح من جملة العالم فهو ربها.

الثاني : (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأرواح عابدة له مستعينة به ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعان بها.

الثالث: أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

الرابع: أنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها ضالة شقية وهذا شأن المربوب والمملوك لا شأن القديم غير المخلوق.

الوجه السابع: النصوص الدالة على أن الإنسان عبدٌ بجملته وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه بل

عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع لها في الأحكام وهي التي تحركه وتستعمله وهو تبع لها في العبودية.

الوجه الثامن: قوله تعالى: **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً فإنه إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل (ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان) والمقصود بهذا الدليل أنه كيف تكون روح الإنسان قديمة في الوقت الذي يقرر فيه الله أن الإنسان مر عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً له ذكر ، هل يعني ذلك أن الروح التي تكاد أن تكون الإنسان الحقيقي المتخفي بقناع الجسد ليست شيئاً يذكر في العلم الإلهي.

الوجه التاسع : النصوص الدالة على أن الله سبحانه وتعالى كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا يارسول الله جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول الأمر، فقال كان الله ولا شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب

فى الذكر كل شيء. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل هو الأول وحده لايشاركه غيره فى أوليته بوجه.

الوجه العاشر: النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه فإذا كان الملك (أحد الملائكة) الذى يحدث الروح فى جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بنفخته قديمة؟ وهؤلاء المغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه وهذا ضلال وخطأ، وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخةً تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة، فتكون النفخة هى سبب حصول الروح وحدوثها له كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه، والغذاء سبب نموه، فمادة الروح من نفخة الملك ومادة الجسم من صب الماء فى الرحم فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة ومنهم

من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية فالملك أب لروحه ، والتراب أب لبدنه وجسمه.

الوجه الحادى عشر : حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى فى صحيح البخارى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف) والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة.

الوجه الثانى عشر : الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال وهو شأن المخلوق المحدث المربوب قال الله تعالى :

﴿والله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

والأنفس هنا هى الأرواح قطعاً، وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال سرينا مع رسول الله صلى الله عليه سلم فى سفر ذات ليلة فقلنا يارسول الله لو عرشت بنا، فقال إنى أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة فقال بلال أنا يارسول الله فعرس

بالقوم فاضطجعوا وأسند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طلع جانب الشمس فقال يابلال أين ماقلت لنا؟ فقال والذى بعثك بالحق ما ألقيت على نومة مثلها من قبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء .

فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها وفى منامها التى يتوفاها ملك الموت، وهى التى تتوفاها رسل الله سبحانه وتعالى وهى التى يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرهاً ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها وتوقف عند يدى ربها فيقضى فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم، وهى التي تجعل فى أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة، وهى التى تعرض على النار غدواً وعشياً، وهى التى تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى. وهى الأمارة بالسوء وهى اللوامة وهى المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهى التى تعذب وتنعم وتشقى وتحبس

وترسل وتصح وتسقم وتلذ وتألم وتخاف وتحزن وما ذلك إلا سمات مخلوق مبدع.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند نومه (اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها فإن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)، وهو تعالى بارىء النفوس كما هو بارىء الأجساد قال تعالى :

﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ قيل من قبل أن نبرأها أى نبرأ المصيبة، ولوقيل من قبل ترجع إلى الثلاثة من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه.

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفسها إلا العدم فهى لاتملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً لاتستطيع أن تأخذ من الخير إلا ماأعطاها وتتقى من

من الشـر إلا مـا وقـاهـا ، ولا تهـتـدى إلى شـىء من مـصـالح دنيـاهـا وأخـراهـا إلا بهـداه ، ولاتصلح إلا بـتـوفـيـقـه لهـا وإصـلاحـه إياهـا ، ولا تعلم إلا مـا علـمـهـا ، ولا تتـعـدى مـا ألهمها، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها.

فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفـجـور والتقوى خـلافـا لمن يقـول إنهـا ليست مـخلوقـة ومن يقـول إنهـا وإن كـانت مـخلوقـة فليس خـالقـاً لأفـعـالـهـا وهمـا قولان لأهل الضلال والبغى.

ومعلوم أنهـا لو كانت قديمة غير مخلوقـة لكانت مستغنية بنفـسـهـا فى وجـودهـا وصـفـاتـهـا وكـمـالهـا وهذا هـو أبطل الباطل. فإن فقرها إليه سبحانه فى وجودها وصلاحها هو من لوازم ذاتهـا ليس مـعللاً بعلـة فإنه أمر ذاتى لها كـمـا أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللاً بعلة. فـهو سـبـحـانه الغنى بالذات فـلا يشـاركـه سـبـحـانه فى غنـاه مشارك كمـا لا يشاركه فى قدمه وربوبيته وملكه التام وكماله المقـدس مـشـارك، فـشـواهد الخلق والحـدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان.

قال تعالى: **﴿ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد﴾** (١٥ فاطر)

وهذا الخطاب بالفقر للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط، وهذا النص التام لله وحده لا يشركه فيه غيره ، وقد أرشد الله سبحانه وتعالى عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله **﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين﴾** (٨٣ - ٨٧ الواقعة)

أى فلولا إن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع، أو لا تعلمون أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعلمها .

وهذا الأمر (إن الروح مخلوقة) أوضح من أن تساق الأدلة عليه ولولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ممن قصر فهمه فى كتاب الله وسنة نبيه فتحدثوا بسوء الفهم لا بالنص عن أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن لمن له أدنى مسحة من عقل أن ينكر أمراً تشهد عليه به نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه بل تشهد به السماوات والأرض والخليقة فلله

سبحانه فى كل ما سواه آية بل آيات تدل على أنه مخلوق موهوب وأنه خالقه وربه وبارئه ومليكه ولو جحد ذلك فله شاهد عليه .. تلك هى أدلة ابن قيم الجوزية على أن الروح مخلوقة وليست قديمة.

أما بعد أخي القارىء .. فانى أود أن أطرح عليك عدة أسئلة تجيبها بنفسك ولنفسك وبكامل حريتك الفكرية ..

هل قضاية ثنائية الوجود وقضية قدم الروح أو حداثتها قضية واحدة ذات اسمين أم هما قضيتان مختلفتان بالفعل؟

واذا كانتا قضيتين .. فهل هما متشابهتان أم متباينتان ؟

وإذا انعدم بينهما التشابه .. فهل الأدلة التى ساقها ابن قيم الجوزية لدفع القول بقدم الروح صالحة لدفع القول بثنائية الوجود .

الإمام
أبو حامد الغزالى
وابن سيناء
وثنائية الوجود

اختلف الفلاسفة فى العديد من القضايا منذ القدم، وإحدى هذه القضايا قدم العالم ، فهناك سؤال مطروح منذ أمد بعيد وهو: هل العالم قديم أى موجود مع الله منذ الأزل أم محدث بمعنى أنه مخلوق لم يكن موجوداً قبل خلقه ؟

والذى استقر عليه رأى جماهيرهم المتقدمين كما يقول الإمام الغزالى هو القول بقدمه، وأنه لم يزل موجوداً مع الله تعالى، ومعلولاً له ، ومساوقاً له، غير متأخر عنه بالزمان، مساوقة المعلول للعلة، ومساوقة النور للشمس، وأن تقدم البارىء عليه كتقدم العلة على المعلول، وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان .

ولقد اختلف موقف كل من ابن سينا والإمام تجاه هذه القضية ، فابن سينا من أنصار قدم العالم ، ويرى أنه من المستحيل أن يكون العالم محدث ، فى حين يرى الإمام أن العالم محدث مخلوق، ولم يقتصر على ذلك بل جعل القائلين

بقدم العالم من أهل الكفر والضلال وقام بتفنيد أدلتهم والرد عليهم بالأدلة المنطقية حتى يدحض الحجة بالحجة.

ولعل القارىء يتساءل ما علاقة قدم العالم بثنائية الوجود موضوع البحث، فنجيب بأن القضية واحدة مع فارق بسيط لا يحول دون دفع القول بثنائية الوجود ببعض الأدلة التى ساقها الإمام رحمه الله لدفع القول بقدم العالم، ويتجلى هذا الفارق فى أن أنصار قدم العالم يرون أن العالم قديم قلباً وقالباً ، أى قديم بالجواهر والمادة، فى حين يرى الدكتور أن القديم هو ذوات أو جواهر أو حقائق المخلوقات التى ألبسها الله إياها.

وكذلك يرى الدكتور - كما قلنا من قبل - أن أولوية الله وأسبقيته على الجواهر الموجودة منذ الأزل هى أولوية بالرتبة (الذات) ، وأولوية الرتبة هذه ليست أولوية زمنية، ولذلك فانها تستلزم أن يكون الله والعالم إما قديمين أو محدثين ، ونظرا لاستحالة أن يكونا محدثين لأن الله قديم فالنتيجة الحتمية هى أن الجواهر قديمة مع الله منذ الأزل، ولذا سوف نعنى بدراسة الدليل الثانى الذى ساقه الفلاسفة للتدليل على قدم العالم لما بينه وبين حديث الدكتور من تطابق ثم نلحقه برد الإمام على هذا الدليل.

وقبل أن نخوض فى شرح هذا الدليل الذى يرمى إلى إثبات قدم العالم بالمادة والجواهر كما يرى الفلاسفة أو قدم جواهر ملخوقات العالم ، كما يرى الدكتور نود أن نوضح الفارق بين أولوية الرتبة والأولوية الزمنية، فالأخيرة تعنى أن الله أسبق فى الوجود من العالم بزمن معين معلوم أو مجهول المقدار بينما تعني أولوية الرتبة أن الله متقدم عن العالم بذاته وليس بسبق زمني فى الوجود، ومن أمثلة أولوية الرتبة أولوية الواحد على الاثنين فى الأعداد الحسابية، فإنه لا يمكن القول إن الوحد أسبق فى الوجود الزمنى من الاثنين وإنما يمكن القول إن الواحد أسبق بذاته من الإثنين .

وبعد هذه التفرقة وقبل شرح هذا الدليل الذى استند اليه الفلاسفة لإثبات قدم العالم وأومأ إليه الدكتور للتدليل على قدم الجواهر نقول إن الدين الإسلامى قد حسم هذه القضية بالكتاب والسنة والإجماع على أن الله سبحانه وتعالى متقدم عن العالم، فالله كان ولم يكن معه شىء كما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة وكما جاء فى الحديث القدسى (كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف فخلقت

الخلق فبى عرفونى) ، والعالم مخلوق من صنعه عز وجل .. متـأخراً عنه فى الوجود ، والله سبـحانه وتعالى هو الأول وأولويتـه بالرتبـة والزمن ، ولقد استـخدم الفلاسـفة دليلهم الثانى سالف الذكر لإبطال حقيقة تقدم الله عن العالم وأولويتـه عليـه بالرتبـة والزمن لكى يصلوا من خـلال هذا الطريق إلى إثبات قدم العالم بالمادة والجواهر أو بالجواهر فقط كما يرى الدكتور..

يقول الفلاسفة فى هذا الدليل إن تقدم الله عن العالم إما أن يكون بالرتبة (الذات) أو بالزمن ، وفى كلتا الحالتين سنصل إلى إثبات قدم العالم .. فإذا قلنا إن الله متـقدم عن العالم بالرتبة وهو تقدم غير زمنى فإن الله والعالم إما أن يكونا قديمين أو محدثين ، وبالطبع لن يكونا محدثين لأن الله قديم .. إذن فالعالم قديم مع الله منذ الأزل، وإذا قلنا أن الله متقدم عن العالم بالزمن فهذا يعنى أنه قبل خلق الله للعالم والزمن كان هناك زمن ، وإذا كان هناك زمن فإن العالم لابد وأن يكون قديم لأن الزمن ينتج عن حركة الأفلاك التى يتكون منها العالم - والمقصود دوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس - وهو مايؤدى إلى تعاقب

الليل والنهار وتعاقب فصول السنة، إذن القول بتقدم الله عن العالم سواء بالرتبة أو بالزمن أو بهما معاً يثبت على حد قول الفلاسفة أن العالم قديم بمادته وجواهره أو بجواهره فقط كما يقول الدكتور.

ويقول الإمام رداً على ذلك كما ورد في كتاب تهافت الفلاسفة: الزمان حادث ومخلوق ، وليس قبله زمان أصلاً، ومعنى قولنا إن الله متقدم على العالم والزمان ، أنه سبحانه كان ولا عالم ثم كان ومعه عالم ، ومفهوم قولنا: كان ولا عالم ، وجود ذات البارىء وعدم ذات العالم فقط، ومفهوم قولنا : كان ومعه عالم وجود الذاتين فقط فنعنى بالتقدم انفراده بالوجود فقط ، ولو قلنا : كان الله ولا عيسى مثلاً ، ثم كان وعيسى معه ، ولم يتضمن اللفظ إلا وجود ذات وعدم وجود ذات ، ثم وجود ذاتين ، وليس من ضرورة ذلك تقدير شيء ثالث (الزمن) ، حتى وإن كان الوهم - أى التخيل- لا يسكت عن تقدير شيء ثالث وهو الزمان فلا التفات إلى أغاليط الأوهام .

والحقيقة أننى لست مؤيداً لوجهة نظر الإمام لأن وجود ذات الله وعدم ذات العالم ، ثم وجود الذاتين يستلزم وجود

مرحلة زمنية قبل خلق العالم ولكن لا يعنى ذلك أننى أقر دليل الفلاسفة والذى مقتضاه أن الإقرار بوجود زمن قبل خلق الله للعالم والزمن يستلزم الإقرار بقدم العالم بحجة أن الزمن ينتج عن حركة الأفلاك التى يتكون منها العالم .

فالإمام لم يتوصل إلى مكمن الخطأ فى الدليل السابق والذى يتجلى في خلط فلاسفة القدم بين الزمن من ناحية وتعاقب الليل والنهار من ناحية أخرى ، والحقيقة أنه إن لم يكن من الميسور تعريف الزمن فإنه من الميسور القول بأن الزمن ليس هو تعاقب الليل والنهار ، وهذه الحقيقة كفيلة بهدم الدليل سالف الذكر؛ لأن الذى ينتج عن حركة الأفلاك هو تعاقب الليل والنهار وليس الزمن ، فإذا قلنا إن التعاقب قديم فإنه يتحتم القول بقدم العالم، أما إذا قلنا إن الزمن قديم فهذا لا يستلزم القول بقدم العالم لأن الزمن له وجود مستقل بذاته ولا علاقة له بحركة الأفلاك ، ويؤيد وجهة النظر هذه قول الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿**قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم**

يل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾

(الآية ٧١، ٧٢ القصص)

فالله سبحانه وتعالى يفترض في هذه الآية دوام الليل أو دوام النهار إلى يوم القيامة ويؤكد مع ذلك أن الحياة مستمرة وأن الزمن لم يتوقف حيث يسأل عباده من سيأتيكم بالنهار إذا أدمت عليكم الليل إلى يوم القيامة ومن سيأتيكم بالليل إذا أدمت عليكم النهار إلى يوم القيامة ، فالآية صريحة فى التفرقة بين الزمن من ناحية والتعاقب من ناحية أخرى ، وإني لأراها معجزة من معجزات القرآن التى لم تتوقف عن الظهور منذ نزوله وحتى وقتنا هذا وإلى قيام الساعة.

ومختصر القول إن وجود فترة زمنية قبل خلق العالم والزمن لا يعنى قدم العالم لأن الزمن له وجود مستقل عن حركة الأفلاك ، وأما الذى يرتبط بحركة الأفلاك فإنه تعاقب الليل والنهار وليس الزمن .

ويشير الإمام إلى ذلك التناقض الذى وقع فيه هؤلاء إذ يقولون إن العالم قديم بجواهره وصوره أو بجواهره فقط على حد قول الدكتور، ثم يقولون إن الله صانعه فيقول فى كتاب تهافت الفلاسفة الصفحة التاسعة والثلاثين بعد المائة: إنه من الباطل أن يكون العالم فعلا لله تعالى على

أصلهم ، وذلك لانعدام الشرط فى الفعل ، فالفعل عبارة عن الإحداث ، والعالم عندهم قديم ، وليس بحادث ، ومعنى الفعل إخراج الشيء من العدم إلى الوجود بإحداثه، وذلك لايتصور فى القديم ، إذ الموجود لا يمكن إيجاده ، فإذن شرط الفعل أن يكون حادثاً، والعالم قديم عندهم ، فكيف يكون فعلاً لله تعالى عن قولهم علواً كبيراً .

قديس
توما الإكوينى
وقدم العالم
وثنائية الوجود

يقول الدكتور سليمان دنيا : ولعل من الطريف أن أسوق هنا رأى فيلسوف مسيحى - كان همه أيضاً أن يوفق بين الدين والفلسفة - عاش فى العصور الوسطى كما عاش ابن سينا والغزالى ويبدو أنه اطلع على وجهة نظرهما ، فهداه تشددهما إلى إمكان وجود حل وسط، ذلكم هو القديس توما الاكوينى الذى عاش بين سنتى ، ١٢٢٥ ، ١٢٧٤م، والذى يصور الأستاذ يوسف كرم نظرية الخلق عنده على الوجه الآتى :

١- كل موجود - ما خلا الله - مخلوق من الله ضرورة، لأن الوجود القائم بذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً . فيلزم أن كل ما خلا الله ليس عين وجود ، ولكنه موجود بالمشاركة ، وليس الوجود بالمشاركة صدوراً عن ذات الله ، كما تقول الأفلاطونية الحديثة لأن ما يصدر عن الذات صدوراً ضرورياً ، فهو مثل الذات ، وليس العالم مثل الله .

٢- وقد سبق القول بأن الله لا يريد بالضرورة إلا ذاته ، وأنه يريد غيره بالاختيار فهو ليس يريد بالضرورة أن يكون العالم لا أن يكون قديماً ولا أن يكون حادثاً وهكذا يحسم الخلاف الطويل العنيف بين أنصار القدم وأنصار الحدوث، ذلك أن البحث العقلى فى الإرادة الإلهية، لا يمكن أن يتناول سوى الإرادة الضرورية، أما الاختيار ، فليس يكشف عنه سوى الله وقد فعل إذ أوحى أن العالم حادث .

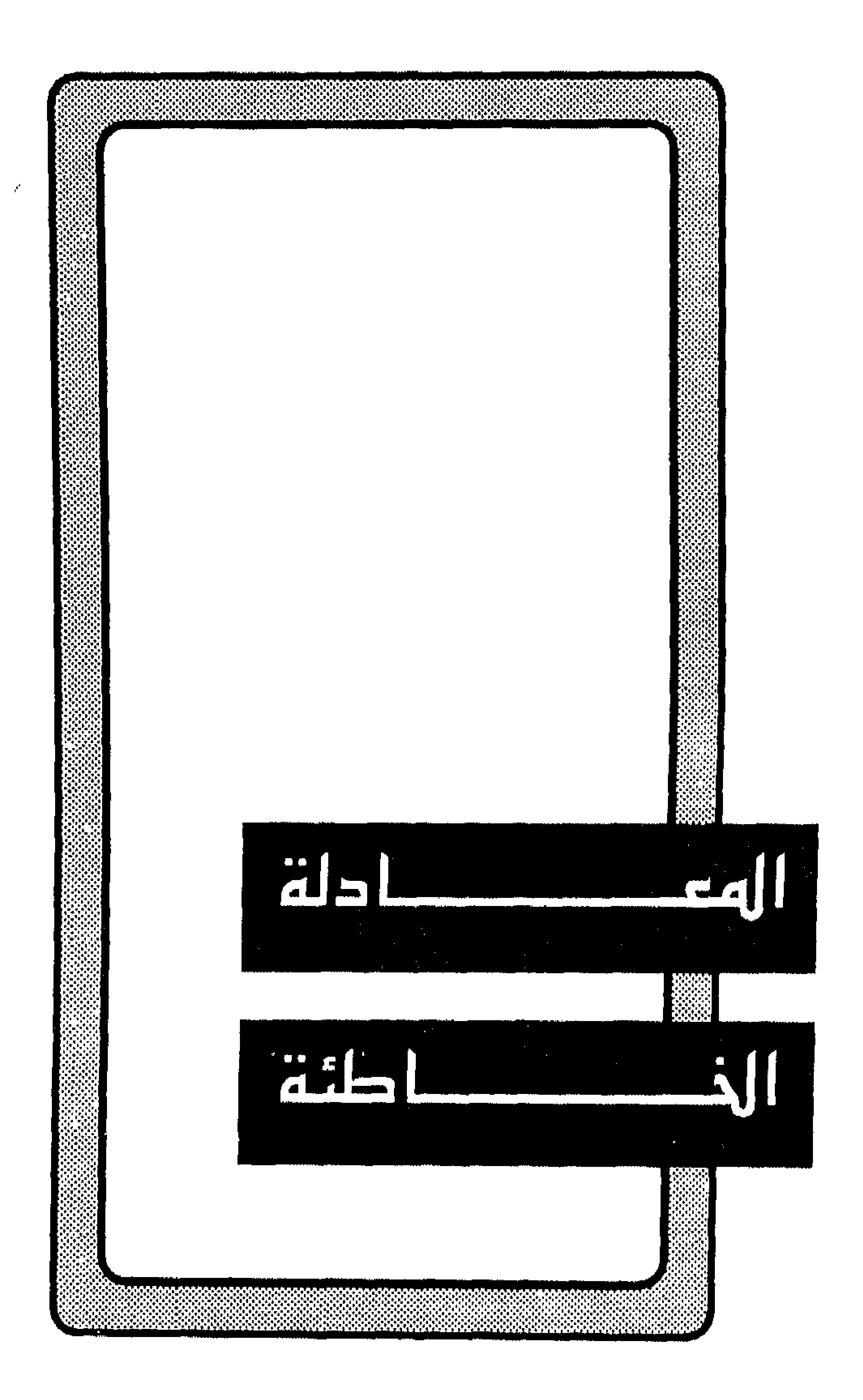
ولكن من جهة العقل البحت، القدم والحدوث ممكنان على السواء ، ولا سبيل إلى اقامة البرهان على ضرورة أحد الحدين وإسقاط الحد الآخر .

تلكم هى حكاية القديس توما الاكويني للمشكلة، وذلكم هو رأيه بصددها ، وهو رأى يختلف عما لابن سينا والغزالى ، أنه يجعل الحدوث والقدم ممكنين ، أما ابن سينا فيجعله مستحيلاً وأما الغزالي فيجعله واجباً ، وبهذا نجد أنه تكون عندنا رأى ثالث للمسألة ومن رأى القديس توما الرجوع بمسألة الحدوث إلى الوحى ونصوصه وهو حق لأن هذه المسألة يمكن أن تتوقف صحتها على ثبوت الوحى ، ولا يتوقف ثبوت الوحى عليها ، لأنه يمكن إثبات وجود الله

بالنظام الثابت فى الكون، دون حاجة إلى إثبات حدوث الكون، ثم إثبات صدق الرسول بالمعجزات.

ومن الرسول يعلم حدوث الكون، إلا أن هذا لايعنى أن كل العقائد تعلم بالوحى.

وخلاصة رأى القديس توما ، هو أن الفيصل فى هذه المسألة الوحى ، وقد أخبر الوحى بأن الكون بأكمله ، محدث مخلوق لله سبحانه وتعالى .


المعادلة
الخاطئة

إذا كانت حقيقة الإنسان أو جوهر نفسه أو طبيعته الخيرة أو الشريرة مخلوقةً من مخلوقات الله ، فإن الإنسان مسير كليةً ، والله هو المسئول الأول والأخير عن أعمال الإنسان باعتبار أنه الخالق لهذه الطبيعة الخيرة أو الشريرة، والإنسان هنا ما هو إلا ذلك المظلوم الذى خلق له الله طبيعته الشريرة أو ذلك المحظوظ الذى خلق له الله طبيعته الخيرة ، ويتساءل من قادته أعماله إلى النار قائلاً

يارب لقد خلقت لى طبيعتى الشريرة ، وما كانت أعمالى السيئة إلا انعكاساً لطبيعتى التى لا يد لى فيها ، فكيف تحاسبنى على ما لا جرم لى فيه .

فإذا كانت ذات الإنسان من مخلوقات الله بطبيعتها الخيرة أو الشريرة فإن حساب الإنسان عما اقترفه من ذنوب ظلم مبين لأنه حساب لغير المسئول ، أما إذا كانت ذات الإنسان غير مخلوقة وكانت أزلية كما أن الله أزلى وأن

أولوية الله عليها أولوية رتبة وليست أولوية زمنية ، فإنه يجوز محاسبة الإنسان عن أعماله الخيرة أو الشريرة لأنه هو المسئول الوحيد عن أعماله .

تلك هى المعادلة الصعبة الخاطئة التى استطاع الدكتور ببراعة أن يوقع فيها القارئ - فالقارئ إما أن يقبل أن يكون الإنسان مسيراً فى كل أعماله وأن الله هو المسئول عن هذه الأعمال وهذا محال لما فيه من إسناد الظلم إلى الله ، وإما أن يقبل أن (ذات الإنسان أو جوهر الإنسان أو حقيقة نفس الإنسان) غير مخلوقة لله وأنها موجودة منذ الأزل بلا خالق ومن هنا يكون الإنسان مسئولاً مسئولية كاملة عن أعماله .

ويقف القارئ حائراً أى الأمرين يقبل ؟

أيقبل أن يكون الإنسان مسيراً وأنه يدخل الجنة بلا فضل منه أو يدخل النار بظلم من الله ؟

أم يقبل وجود ذوات فى العدم ليس لها خالق ؟

ولقد اختار الدكتور الأمر الثانى لكى يقنع نفسه أن الإنسان مخير اختياراً كاملاً وفقاً لطبيعته الأزلية والتى لايسأل عنها غيره بل جعل إقناع الآخرين بذلك مسلكاً له فى العديد من أعماله.

وإذا كانت صياغة الدكتور قد جعلت اجتماع خلق الله ذوات البشر ومسئولية الإنسان عن أعماله من المستحيلات فإن الإنسان مسئول مسئولية كاملة عن أعماله .

وإذا قرأنا أقوال الدكتور في هذه القضية استطعنا أن نكشف تلك الفروض الخاطئة التي أوصلته إلى المعادلة الخاطئة سالفة الذكر.

فمن الملاحظ أن الدكتور قد استخدم العديد من العبارات المجملة التي تبدو صحيحة إلى أن يتم تحليلها تحليلاً دقيقاً، فقد قرأنا العديد من المرات عبارتي النية الخيرة والنية الشريرة، كما قرأنا طبعاً خيراً وطبعاً شريراً .

فهل يمكن أن توصف النية بأنها خيرة أو شريرة وصفاً مجملاً ؟

وهل يصح القول بأن هناك طبيعة خيرة للإنسان أو طبيعة شريرة؟

ويبدو من مقالات الدكتور في هذا الموضوع أنه يفهم النية على أنها كل لا يتجزأ فالإنسان إما ذا نية خيرة أو ذا نية شريرة، ولكي نعلم صحة فهمه من خطئه ينبغي أن نفهم معنى كلمة النية.

جاء في معجم (مختار الصحاح) أن (نوى) تعني عزم وأن (النية) هي الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد.

وجاء في (المعجم الوجيز) أن النية هي قصد النفس إلى العمل وأنها أيضاً المكان الذي ينوي إليه المسافر قريباً كان أو بعيداً.

فالنية إذن هي قصد الإنسان إلى عمل ما خيراً كان أو شراً، ومن خلال هذا المفهوم فإن الإنسان له عدد من النوايا أو النيات لا يمكن حصره، ففي كل مرة ينبغي على الإنسان فيها أن يختار بين العديد من البدائل فإن اختياره يمثل نية مختلفة عن نيته إذا اختار بين العديد من البدائل في موضوع آخر ، ومن هنا فإنه لا يجوز أن نقول إن فلاناً نيته خيرة أو شريرة إجمالاً .

وطالما تعددت نوايا الإنسان وتنوعت بين الخير والشر فإنه ليس هناك طبيعة خيرة أو شريرة ، لأن ذلك المفهوم يقتضي أن تكون جميع اختيارات الإنسان إما خيرة فتكون طبيعته كذلك أو تكون جميعها شريرة فتكون طبيعته كذلك، وهذا مالايحدث كما أسلفنا إذ تتعدد اختيارات الإنسان ونواياه ما بين الخير والشر.

إذن القول بأن الإنسان ذو نية خيرة أو شريرة إجمالاً زعم باطل؛ نظراً لأن النية هي قصد الإنسان القيام بعمل ما خيراً كان أو شراً، وهي بهذا المعنى متعددة وليست كلاً لايتجزأ.

والقول بأن هناك طبعاً خيراً وطبعاً شريراً هو أيضاً زعم باطل؛ لأنه لا يوجد إنسان مهما كانت عقيدته والظروف المحيطة به دائم على فعل الخير أو دائم على فعل الشر، كما أنه كثيراً ما ينقلب الصالح طالحاً والطالح صالحاً مما ينفي فكرة الطبع الخير والطبع الشرير.

إذن كيف نجمع بين كون الله هو الخالق للبشر من العدم الذي يعني اللاشيئية وأن الإنسان مسئول مسئولية كاملة عن أفعاله ؟

لهذا الغرض نقول : لقد خلق الله الخلق حين أراد أن يعرف كما قال في الحديث القدسي (كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني) ، ولقد خلق الله البشر وأهبطهم على الأرض وكان من قبل قد منحهم نعمة العقل والذي أفهمهم به أن هناك ما يحقق لهم الخير فينبغي عليهم القيام به وأن هناك ما لا تحمد عقباه فينبغي عليهم اجتنابه، ومنحهم الإرادة والقدرة على الاختيار بين الالتزام وعدمه .

فالصورة إذن أن هناك كائناً عاقلاً يدرك طريق الخير كما يدرك طريق الشر من خلال الرسائل السماوية، ولديه المقدرة على اتباع هذا الطريق أو ذاك ، والكل (أى البشر) فى ذلك سواء، إذن فهو مسئول مسئولية كاملة فى حال اتباعه أى من الطريقين . أما تصور وجود طبيعة ذاتية داخلية تقهر الإنسان على فعل الخير أو فعل الشر فهو تصور زائد عن الصورة سالفة الذكر وذلك فضلاً عن عدم صحته.

وإذا جاز أن نقول إن فلاناً طبيعته خيرة أو شريرة فإن ذلك لايعنى وصفاً داخلياً للإنسان وإنما هو وصف لاحق على إدراكنا بأن فلاناً دائم على فعل الخير فنصفه بأنه ذو طبيعة خيرة أو إدراكاً بأنه دائم على فعل الشر فنصفه بأنه ذو طبيعة شريرة.

وإذا كانت ثمة أشياء تؤثر على اختيارات الإنسان ، فإنها عوامل أخرى متعددة كعقيدة الإنسان مثلاً أو الظروف البيئية المحيطة به ، وليس من بين تلك العوامل التى يدرسها العلماء من قديم الزمن أن الإنسان يولد وله طبيعة متجهة نحو الخير أو الشر دوما كاتجاه البوصلة إلى الشمال..

مما سبق يمكن لنا أن نختم القول بأن ..

الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان من اللاشىء ومنحه عقلاً يدرك به الطريقين ومنحه قدرة على الاختيار وساوى في ذلك بين البشر جميعاً ، إلا من أصابته علة أخرجته عن دائرة المسئولية، وبذلك جعل الله الإنسان مسئولاً مسئولية كاملة عن أفعاله التى خيره فيها ، أما تلك الخارجة عن إرادة البشر فهى خارج القضية كالموت والميلاد والصحة والمرض .. الخ .

ومن هنا فإنه لا يحق لأى إنسان أن يحتج على الله بأنه قد خلق له طبيعته .. أو حقيقته الشريرة، إذ ليس للإنسان – أى إنسان – (حقيقة أو ذات طبيعة) ثابتة على فعل الخير أو ثابتة على فعل الشر .

والإنسان يقضى حياته متردداً بين طريقى الخير والشر، والذى يجعل شخصاً ما ميالاً لأحد الطريقين عن الآخر ليست طبيعة داخلية موجهة منذ الأزل وإنما هو مدى إيمانه بالله سبحانه وتعالى وبشرائعه السماوية ، والذى يتوقف بدوره على درجة الإنسان العلمية عامة وثقافته الدينية خاصة.

ونظراً لبطلان القول بأن هناك ذوات خيرة بطبيعتها أو شريرة بطبيعتها ، فإننا لسنا بحاجة إلى القول بقدم هذه الذوات وبأنها غير مخلوقة حتى نعفى الله سبحانه وتعالى من مسئولية خلق ذوات شريرة كما فعل الدكتور .

وختام القول إنه ليس هناك ذوات خيرة بطبيعتها أو شريرة بطبيعتها ، وليس هناك جواهر أزلية موجودة مع الله منذ الأزل بدون خالق ، وليس هناك ثنائية وجود والله على ماأقول شهيد ..

خاتمة

السيد الدكتور / مصطفى محمود .. رجل العلم والإيمان.. الذين بذل فى سبيلهما الكثير والكثير ..

أحب أن أذكر سيادتكم بهذه الآيات الكريمة، وأرجو أن تبحث وراءها بحثاً عميقاً ثم ترى إذا كان من الممكن أن تتفق هذه الآيات مع القول بثنائية الوجود التى جاء بها ابن عربى أم أنه من المستحيل الجمع بينهما .

يقول الله تعالى :

﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم﴾ (الأنعام - ١٠١)

﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل﴾

(الأنعام - ١٠٢)

﴿الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل﴾

(الزمر - ٦٢)

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾

(الإنسان - ١)

﴿ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾
(التين – ٤)
﴿خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾ (التغابن – ٤)
﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (آل عمران – ٦)
﴿ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك﴾ (الانفطار – ٨)
﴿ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأتى بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾
(فاطر – ١٥ – ١٦م)
﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير﴾ (فاطر – ١)
﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ (ص ٧١ –٧٢)
﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم﴾ (الحديد – ٣)

إن من يتأمل الآيات القرآنية السابقة يجد أن بعضها يدفع فكرة ثنائية الوجود من أساسها ، ومنها مايدفع بعض الجزئيات التي تتكون منها أو تستند عليها هذه الفكرة.

وبعد فإني أحب أن أوجه النصيحة إلى الدكتور مصطفى محمود وكل من هو في موضعه، والمقصود بمن هو في موضعه .. هو كل عالم جليل آتاه الله نعمة النشر لأفكاره أقول لهم جميعاً :

إنكم أهل أمانة، فلا تدفعكم الرغبة في تقديم الجديد من الأفكار إلى تقديم فكرٍ غير مدروس ، قد يصل كما في حالتنا هذه إلى محاولة إقناع العامة بما يتعارض مع النصوص الصريحة للكتاب والسنة.

واعلموا أن عليكم وزر من يتبعكم بجهل ، وأن مسئوليتكم على قدر ما آتاكم الله من نور وهدى وبصيرة قادرة على تمييز الحق من الباطل قبل أن يتطاير من بين أيديكم إلى عقول الناس ..

وفقكم الله جميعاً إلى ما فيه الخير والهدى للناس كافة.

محمد العمدة

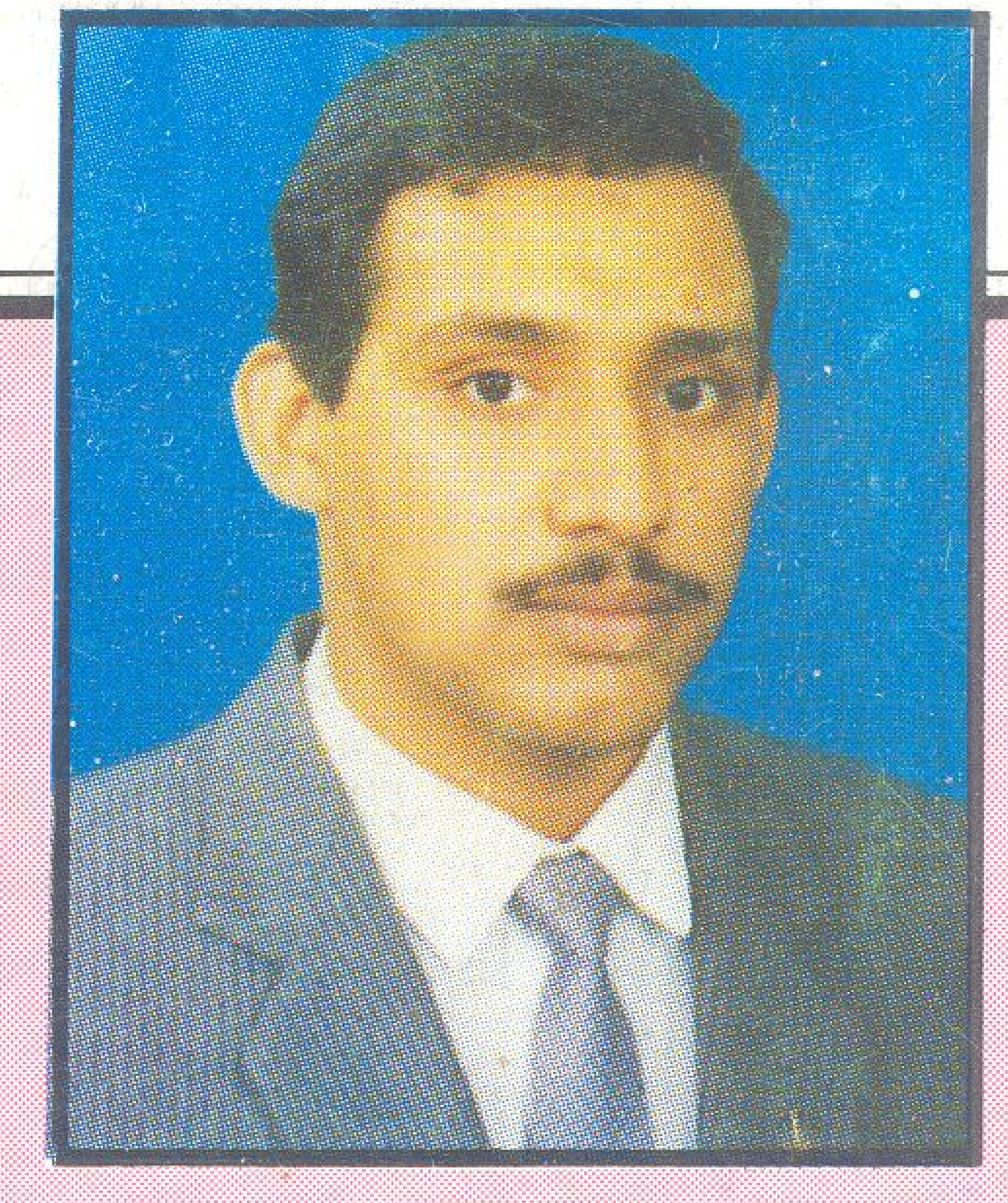
فهـــــرس

رقم الإيداع ٩٣/٥٩٥٥
I . S . B . N
977 - 236 - 064 - 0

الهدى نصر
طباعة - نشر - توزيع
٥٦ش عبدالخالق ثروت ـ القاهرة
ت :٣٩٠٩٩٠٥ ـ ٢٨٠٧٨٨١

مطابع الأوفست
بشركة الاعلانات الشرقية

مصطفى محمود
وجريمة ثنائية الوجود



هل ادعى الدكتور مصطفى محمود أن هناك موجودات أزلية لم يخلقها الله سبحانه وتعالى ؟!

نعم .. أدعى الدكتور مصطفى محمود ذلك حينما اعتنق فكرة ثنائية الوجود لابن عربى ، ولم يكن اعتقاده هذا فى فترة الشك والبحث التى مر بها - كما يظن البعض - بل فى المرحلة الأخيرة من تطوره الوجدانى ، وهى مرحلة الإيمان والتصوف .

وليس أدل على ذلك من أن هذه
كما روى الدكتور - من إلهامات الصو
ابن عربى ، فضلاً عن أنه فى بحث
التسيير والتخيير أكد أن الاعتقاد
الوجود هو الحل الوحيد لهذه « الأز
يسميها هو !! .

مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية